

الإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ



بطاقة الفهرسة

العتبة الحسينية المقدسة (النجف، العراق). مؤسسة الخلق العظيم - مؤلف.

الإجابة إلى الله/ لجنة التأليف: الشيخ زياد الساعدي، الشيخ إسكندر الجعفري.

- الطبعة الأولى. - النجف، العراق: العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة الخلق العظيم، ٢٠٢٣م / ١٤٤٥ للهجرة.

١٨٤ صفحة؛ ٢١ سم. - (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ١٢٦٦)، (مؤسسة الخلق العظيم؛ ١٨)، (الفضائل والردائل؛ ٦).

يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ١٧٣-١٨٠).

١. التوبة (إسلام). ٢. الوعظ والإرشاد. ٣. تزكية النفس (إسلام).

أ. الساعدي، زياد - مؤلف. ب. الجعفري، إسكندر - مؤلف. ج. العنوان.

رقم التصنيف LC: BP166.79 .M87 2023

تمت الفهرسة قبل النشر في شعبة نظم المعلومات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٥٩٦) لسنة (٢٠٢٣م)

الإنابة إلى الله

طبعة التأليف

الشيخ زياد الساعدي
الشيخ إسكندر الجعفري

الإشرافُ العلوي

المجمع العلمي في مؤسسه في قم

الطبعة ١٨



جميع الحقوق محفوظة
للعتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

إصدار

مؤسسة الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هوية الكتاب

- | | |
|---------------------------------------|-------------------|
| الإناية إلى الله | • عنوان الكتاب: |
| مؤسسة الخلق العظيم | • المؤلف: |
| اللجنة العلمية في مؤسسة الخلق العظيم | • الإشراف العلمي: |
| العتبة الحسينية المقدسة | • الناشر: |
| وحدة تقويم النص في مؤسسة الخلق العظيم | • تقويم النص: |
| محمد شوكت | • الإخراج الفني: |
| الأولى | • الطبعة: |
| دار المؤمن | • المطبعة: |
| ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م | • سنة الطبع: |
| ٥٠٠ | • عدد النسخ: |

مقدمة المؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين
محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد؛ فقد كانت الأخلاق ولا تزال هاجساً مهماً؛ يشغل مساحةً واسعة من
الفكر الإنساني على اختلاف اتجاهاته ومصادره المعرفية، وقد اشتركت في حل هذا
الهمّ الكبير مختلفُ المدارس الفكرية والديانات والحضارات، وسعت في معالجته
على وفق رؤاها المتفاوتة ومبانيها المختلفة. ويدلّل هذا الاهتمام البالغ على حقيقة في
غاية الأهمية، وهي أنّ الجانب الأخلاقي لدى أبناء البشر عصيّ على الإهمال
والتجاهل، وأنّ أيّ محاولة لتجاهل هذا البُعد المحوري والفطري، أو التغافل عنه
ليست إلّا محاولة لضبط بركانٍ هائج، أو السيطرة على ثورة عارمة في أعماق
الإنسان تسوقه إلى ما يرى فيه خيرهِ وسعادته وكماله، وهذا ما يدعو إلى التفكير في
هذا الميل الفطري الجارف نحو الأخلاق؛ للإحاطة به والاطلاع على دقائقه
وخفاياه، والعمل على معالجته نظرياً وعملياً.

إنّ التأمل فيما تعيشه البشرية - اليوم - من أزمات مختلفة على مستوى
المجتمعات والأفراد يؤكّد حقيقةً مهمّة؛ وهي أنّ قسطاً كبيراً من تلك الأزمات
يعود إلى وجود فراغات كبيرة في المجال الأخلاقي، أخذت تنعكس سلباً على

الجانبيين الروحي والسلوكي للإنسان المعاصر، وقد كان لمجتمعاتنا الإسلامية نصيبٌ من تلك الأزمات المتعددة الجوانب، فأثّرت بشكلٍ كبيرٍ في التراجع الأخلاقي الملحوظ، ولا سيّما مع ملاحظة مدى التعقيد الذي تتسم به التحديات الراهنة، وما تحمله الحياة المعاصرة من تغيّراتٍ مهمّة، وانفتاحٍ غير مسبوقٍ على الأفكار والثقافات والأنماط السلوكيّة المختلفة في ظلّ الثورة المعلوماتيّة، والتنوّع المذهل في وسائل الإعلام والتواصل.

فلا ريب في أنّ ملاحظة ما مرّ ذكره تدعو المهتمّين بالشأن الفكري والثقافي إلى وضع الحلول المناسبة، والعمل الجادّ في سبيل مواجهة هذه الأزمات ومعالجتها على المستويين: النظري والعملي، من خلال التأسيس لرؤية أخلاقيّة شاملة، تقوم في جانبها النظري على الوعي التامّ والدقيق بطبيعة الإنسان، وأبعاده الوجوديّة، وخصائصه، وميوله، ورغباته، وفي جانبها العملي على إحياء القيم والفضائل الأخلاقيّة بشتّى الطرق والوسائل المتاحة. ولا تخفى حاجة هذا العمل المهمّ إلى جهد مؤسّساتي منتظم، تتضافر فيه المساعي والخبرات لمواجهة التحديات، والنهوض بالواقع الأخلاقي للمجتمع المسلم. وقد سعت إلى ذلك (مؤسسة الخلق العظيم) لتكون السبّاقة في هذا المجال. وإليك عزيزي القارئ هذه الإطلالة السريعة عليها.

(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها

لقد كان الشعور بالحاجة الملحّة إلى العمل الجادّ في المجال الأخلاقي، من قِبَل القائمين على العمل في العتبة الحسينيّة المقدّسة، حافزاً مهمّاً لإنشاء

مؤسسة متخصصة، ينصبّ جهدها في إحياء النهج الأخلاقي الإسلامي على المستويين: الفكري النظري، والسلوكي العملي، ونشره وترويجه بين أبناء المجتمع الإسلامي بطرقٍ ونشاطاتٍ مختلفة، فتمخّضت تلك الجهود المباركة عن تأسيس (مؤسسة الخلق العظيم)، التي اشتق اسمها من قوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)؛ تيمناً بما نعت به الجليل الأعلى نبيّه الكريم ﷺ بهذه الصفة السامية، على أمل أن تسدّ جزءاً من الفراغ الملحوظ في المجال الأخلاقي.

رؤية المؤسسة

تنطلق المؤسسة من الرؤية الإسلامية للأخلاق، وتتبنّى استراتيجيةً عامّةً تقوم على ثلاثة عناصر أساسية يمكن أن نُعبّر عنها بـ(الأسس الميتافيزيقية للأخلاق)، وهي:

ثانياً: تكامل النظام الأخلاقي في الإسلام

تعتمد الرؤية الأخلاقية المتبنّاة على أنّ الله تعالى كما أودع في الكون أحسن نظام؛ ليسير فيه كل مخلوق إلى كماله المطلوب، فقد أوجد نظاماً أخلاقياً متكاملاً من شأنه أن يوصل الإنسان إلى الكمال من خلال رسم الهدف الأسمى له، وتعيين طريقه، وبيان العقبات التي تعترض مساره، وعيّن

(١) القلم: آية ٤.

القدوة والمرشد في هذا السير، وهو ما تكفل ببيانه الدين الإسلامي الحنيف، بل هو من أهم الوظائف التي بُعث لأجلها سيّد الرسل ﷺ، فقد روي عنه: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(١). ما يعني أنّ هناك نظاماً أخلاقياً متكاملًا ومنسجماً مع فطرة الإنسان، تكفلت ببيانه الرسالة الإسلامية؛ فيتحمّ علينا التعرّف عليه، واستكشاف ركائزه وتعاليمه، والعمل على نشرها وترويجها والتثقيف عليها بمختلف الوسائل والأساليب.

ثالثاً: محوريّة الإنسان في الأخلاق

يُشكّل الإنسان المحور في السجال الأخلاقي؛ فهو الموضوع الذي تدور حوله كلّ الجهود والفعاليات الأخلاقية، بكلّ ما يمتلكه من خصائص وجوديّة، ونفسيّة، وطبيعيّة، وعقليّة، وميتافيزيقيّة، وما له من احتياجات ورغبات وميول، وكلّ ما يؤثّر في اتصافه بالصفات الأخلاقية، وفي صدور الأفعال الاختيارية عنه. ومن الواضح أنّ كل محاولة تهدف إلى تهذيب الأخلاق الإنسانية يجب أن تنطلق من رؤية صحيحة وواضحة ومتكاملة في طبيعة تلك الخصائص والميول والمؤثرات. ونعتقد - جازمين - أنّ الرؤية الأخلاقية الإسلامية تتوفر على قراءة واقعية ودقيقة وتامة وشاملة، تغطّي العناصر المهمة والأساسية في وجود الإنسان وطبيعته وخصائصه وميوله، وكلّ المؤثرات في مسيرته الأخلاقية.

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١٠.

وما ذكرناه - آنفاً - لا يمنع من الانفتاح على العلوم والمعارف المهمة بدراسة الإنسان وشؤونه وأبعاده المختلفة، ولا سيّما مع التطوّر الكبير الذي شهدته تلك العلوم وتخصصاتها الدقيقة، كالعلوم الطبيعيّة والإنسانيّة؛ من قبيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم النفس (السيكولوجيا)، وعلم الاجتماع (السيكولوجيا)، وعلم التربية وغيرها، إذ يُمكن الاستفادة من معطيات تلك العلوم والمعارف في المجالات التي تصبُّ في سبيل تحصيل الوعي بخصائص الإنسان، والاطّلاع على الوسائل المؤثّرة في التربية والتهذيب، شريطة أن لا تتصادم مع الأسس العقائديّة، ولا تتنافى مع المبادئ والقيم الأخلاقيّة والتعاليم التربويّة الإسلاميّة.

أولاً: فطريّة الميل الأخلاقي والهيّته

تنطلق الرؤية الأخلاقيّة الإسلاميّة من مبدأ التوحيد، والإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وتبني على أن الله تعالى قد أودع في الإنسان ميلاً فطريّاً يدفعه نحو الخير وتحصيل الكمال بإرادته واختياره، وتعدّ الغاية القصوى للأخلاق هي الوصول إلى القرب الإلهي باعتباره الكمال المطلق، وتكمن السعادة الحقيقيّة للإنسان في وصوله إلى تلك الغاية والاصطباغ بصبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١). فالله تعالى هو الموجد للميل الأخلاقي لدى الإنسان، وهو المقصد والمبتغى الذي يجب على الإنسان التوجّه إليه في

كُلَّ مُحَطَّاتِ مَسِيرَتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الرُّوحُ السَّارِي فِي كُلِّ فَعَالِيَاتِهِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

أهداف المؤسسة

تجدر الإشارة - في سياق الحديث عن مؤسسة الخلق العظيم - إلى الأهداف المتوخاة من وراء تأسيسها؛ إذ تهدف إلى:

١- رفد المكتبة الإسلامية بالتأجيات العلمیة التحقیقیة فی المجال الأخلاقی؛ من خلال تألیف الكتب والموسوعات والبحوث والمقالات العلمیة الرصینة.
٢- إحياء التراث الأخلاقی الإسلامي؛ عبر رصد الكتب والمخطوطات الأخلاقیة المهمة، والعمل على تحقیقها ونشرها، وفهرسة التراث الأخلاقی والتعریف به.

٣- النهوض بالجانب الأخلاقی والسلوكي للفرد والمجتمع؛ وذلك عن طریق النشاطات المختلفة التي تخاطب الناشئة والشباب، وطلبة الجامعات، والأساتذة، والكوادر العلمیة والثقافیة والمهنيّة، وأصحاب الاختصاص في المجال الأخلاقی، مضافاً إلى الأسر، والمجتمعات بأطيافها كافة.

٤- رصد المحاضرات والدروس والخطب الأخلاقیة النافعة والمؤثرة التي أفادها العلماء والمختصّون في هذا المجال، والعمل على نشرها بأساليب مختلفة؛ كتدوينها وتحويلها إلى كتب، أو نشرها على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٥- إقامة المؤتمرات العلميّة، والندوات البحثيّة المختصّة؛ من أجل إثراء الفكر الأخلاقي، وفتح آفاق بحثيّة جديدة تُناسب روح العصر ومتطلباته، وإقامة الدورات المختصرة في الأخلاق العمليّة، سواء منها ذات الموضوعات العامّة، كالأخلاق الإسلاميّة، أو الخاصّة كأخلاق المهنة، وأخلاق الأسرة، وغيرها.

٦- رصد الظواهر السلبيّة في المجال الأخلاقي، والمشاكل السلوكيّة التي يعانيها المجتمع، لتقديم دراسة متكاملة فيها؛ بغية وضع الحلول المناسبة لها.

٧- إعداد البرامج الإعلاميّة التي تُسهم في معالجة المشاكل الفرديّة والاجتماعيّة المختصّة بالجوانب الأخلاقيّة، سواء منها البرامج المُعدّة للبتّ على شاشات التلفاز، أو المناسبة للنشر على شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

٨- رفد الساحة الفكرية بالتنتاجات الأخلاقيّة المهمّة عبر ترجمتها من اللغات المختلفة إلى اللغة العربيّة، وكذلك ترجمة التنتاجات المكتوبة باللغة العربيّة إلى اللغات الأخرى.

٩- فتح آفاق التعاون مع الجامعات والمراكز العلميّة والمؤسسات والشخصيّات المختصّة والمعنيّة بهذا الشأن؛ لترشيد العمل وتطويره، والإفادة من الكفاءات في هذا المجال.

١٠- إعداد كوادر متخصصّة بالأخلاق الإسلاميّة؛ من أساتذة وخطباء وباحثين.

١١- السعي إلى إعداد المناهج الدراسية في مجال الأخلاق الإسلامية، وتقديمها للمدارس الدينية، والمدارس والمعاهد والجامعات الأكاديمية، والمراكز العلمية الأخرى.

مشاريع المؤسسة

باشرت مؤسسة (الحُلق العظيم) بإنشاء جملة من المشاريع في سبيل الوصول إلى أهدافها المنشودة، سواء المشاريع الطويلة الأمد والاستراتيجية أو غيرها، وقد صدر لها بعض الإصدارات في هذا الصدد، في حين سيري بعضها النور قريباً بإذن الله تعالى، وهذه المشاريع هي:

١. موسوعة المواعظ الحسنة

يعمل هذا المشروع على تدوين خطب الجمعة الدينية ذات المضامين الأخلاقية، التي ألقاها ممثل المرجعية العليا في النجف الأشرف والمتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته) في الصحن الحسيني الشريف منذ عام (٢٠٠٣م)، وقد عازمت المؤسسة على إخراجها بصيغة كتاب يتسم بتعديل وتحقيق واستخراج للعناوين وغير ذلك.

٢. موسوعة الأخلاق الإسلامية

يهدف هذا المشروع إلى تأليف موسوعة ألفبائية أخلاقية، أو ما يُسمى بـ(دائرة المعارف الأخلاقية) تهتمّ بجمع المفاهيم الأخلاقية من الصفات

والأفعال، وذلك بنحو الترتيب الهجائي، وتقديم عرضٍ كاملٍ ومستوفٍ وموثّق لكلّ ما ورد في تلك المفاهيم على وفق الأسلوب المتّبع في تدوين الموسوعات ودوائر المعارف؛ من بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي، وبيان حقيقة المفهوم الأخلاقي، ووصفه في القرآن والسنة والتراث الأخلاقي، وبيان أقسامه وأسبابه ومناشئه وآثاره ونتائجه، والآلية العملية للتخلّي به إن كان من الفضائل، والتحرّز عنه إن كان من الرذائل، وما إلى ذلك من المباحث المتعلّقة بكلّ موضوع؛ وهذا ما يجعل المشروع سابقةً مهمّةً في المصنّفات الأخلاقية الشيعية، ومرجعاً قيماً ومعتبراً في الأخلاق الإسلامية.

٣. ترجمة النتاجات الأخلاقية

تتّم المؤسسة بترجمة الكتب الأخلاقية المهمة باللغة العربية وبالعكس، ونشرها بعد المراجعة الدقيقة لها وتقويمها من قِبَل اللجنة العلمية في المؤسسة، وقد تمّ العمل على ترجمة عدّة كتب.

٤. موسوعة التراث الأخلاقي

تتضمّن هذه الموسوعة تعريفاً مختصراً بالكتب الأخلاقية على وفق الترتيب الهجائي، مع فهرسة تفصيلية للمباحث الأخلاقية في كلّ كتاب، وتنتهي بفهرس موضوعي للمباحث الأخلاقية في جميع تلك الكتب؛ ليكون دليلاً نافعاً للمحقّقين والباحثين.

٥. إعداد مناهج دراسية أخلاقية

تهدف المؤسسة إلى إعداد مناهج دراسية في مادة الأخلاق لمختلف المراحل في المدارس والثانويات العامة والمعاهد والكلّيات. وتقوم فكرة المشروع على إحصاء المناهج الدراسية في أهم بلدان العالم وترجمتها ودراسة محتواها، وتقييمها في ضوء معايير الأخلاق الإسلامية لغرض التعرّف على نقاط القوة والضعف فيها، لتشريع المؤسسة - بعد ذلك - بكتابة مناهج خاصة لمختلف المراحل الدراسية المذكورة في مادة الأخلاق مستقاة من الأخلاق الإسلامية.

٦. الأدب الأخلاقي

إنّ للأدب بالغ الأثر في نفوس مخاطبيه من مختلف الفئات والأعمار والمستويات، وهذا ما يدعو إلى توظيفه في نشر القيم والمفاهيم الأخلاقية النبيلة. وقد رأت المؤسسة أن تعمل على ذلك في مجالين:

الأول: الرواية الأخلاقية؛ ويتمّ العمل فيه على تأليف روايات أدبية أخلاقية يكون المستهدف فيها فئات الأطفال والناشئة والشباب، من خلال صياغة المفاهيم الأخلاقية، أو كتابة القصص الأخلاقية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام والعلماء والعظماء، بأسلوب روائي معاصر متناسب مع الفئات المستهدفة.

الثاني: الشعر الأخلاقي؛ حيث يعمل فيه على توظيف الأشعار الهادفة ذات المضامين الأخلاقية المؤثرة، وذلك عن طريقين؛ هما:

أ) إعداد موسوعة ألفبائية للأشعار الأخلاقية، حيث تبوّب الأشعار - وفق العناوين الأخلاقية المتضمنة فيها - في ترتيب ألفبائي، لتكون رافداً مهماً للباحثين والخطباء وهوارة الشعر والأدب.

ب) كتابة الشعر الأخلاقي في الأحداث المعاصرة؛ فتم دعوة الشعراء والأدباء واستكتابهم لتسليط الضوء على الفضائل الخلقية والظواهر الاجتماعية الإيجابية بغية دعمها وترويجها، ونقد الظواهر الاجتماعية والأخلاقية السلبية ومواجهتها.

٧. تحقيق التراث الأخلاقي وتدوينه

تعمل المؤسسة على إحياء التراث الأخلاقي، وذلك عن طريقين:
الأول: تحقيق التراث المخطوط والمطبوع؛ ويكون عبر جمع المخطوطات المهمة والكتب المطبوعة غير المحققة، لكي يتم العمل على تحقيقها وفق الأساليب الحديثة في التحقيق.

الثاني: تقرير النتاجات الأخلاقية وتدوينها؛ ويتم عبر رصد الدروس والمحاضرات الأخلاقية المؤثرة للعلماء والفضلاء والأساتذة في الحوزة وسائر المراكز العلمية، والعمل على إخراجها على شكل كتب علمية، بما يحتاج ذلك من تنظيم وتبويب وتحقيق للمباحث الواردة فيها.

٨. مجلة الخلق العظيم

من المشاريع المهمة للمؤسسة إصدار مجلة علمية مختصة تُعنى بالشأن الأخلاقي، تهتم باستقطاب ونشر البحوث العلمية الرصينة للأساتذة والباحثين.

٩. تأليف سلسلة الفضائل والردائل

تعمل المؤسسة على تأليف سلسلة كتيّبات في جملةٍ من الفضائل والردائل الأخلاقية، يتمّ من خلالها مخاطبة الشريحة المتوسطة من القراء، وتتناول المواضيع الأخلاقية المهمة وذات الأولوية الاجتماعية، لمعالجة أهمّ المشاكل الأخلاقية، والحثّ على مكارم الأخلاق الإسلامية، والترويج لها.

١٠. إقامة المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية

تعمل المؤسسة على إقامة سلسلة من المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية، بحضور نخبة من الأساتذة والباحثين المختصّين بالجانب الأخلاقي، لبيان المواضيع الأخلاقية التخصصية المهمة، وعرض أهمّ الآراء والنظريات فيها، كفلسفة الأخلاق، وتاريخ علم الأخلاق، والمدارس الأخلاقية، والمقارنة بين علم الأخلاق والعلوم والحقول المعرفية الأخرى وما شابه ذلك؛ بغية إثراء الساحة الإنسانية والدينية بالفكر الأخلاقي الرصين الذي يعتمد بالدرجة الأساس على الأسس والمبادئ الإسلامية.

١١. المشاريع الإعلامية

تعمل المؤسسة على إعداد جملة من البرامج الإعلامية المختلفة، سواء منها ما يُعدّ لبثّ التلفزيوني، أو ما يكون مناسباً للنشر على مواقع التواصل الاجتماعي، من مقاطع وملصقات تعليمية وثقافية ذات مضامين أخلاقية.

١٢. إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية

من مشاريع المؤسسة الاستراتيجية هو إقامة دورات قصيرة في الأخلاق

العملية لمختلف الفئات، يتم فيها تدريس التعاليم الأخلاقية الخاصة بكل فئة من الفئات، كأخلاق المهنة، وأخلاق الأسرة، وما شابه ذلك.

١٢. المكتبة الإلكترونية الأخلاقية

قامت المؤسسة بعملية مسح ميداني في المكتبات والمواقع الإلكترونية وجمع النسخ المتوفرة للكتب الأخلاقية والتربوية؛ لتكون مصدراً مهماً للباحثين في هذا المجال، ليتم العمل على إعداد تطبيق مختص بالمجال الأخلاقي.

هذا الكتاب

إنَّ الكتاب الذي بين يديك - عزيزي القارئ - يتناول موضوعاً مهماً من الأخلاق العبادية التي ترسم العلاقة بين العبد وربّه؛ وهو الإنابة. والكتاب في طابعه العام يتمثّل بخطاب توجيهي وإرشادي، وقد امتاز بالتنوع في الأسلوب والمصادر والموضوعات المبحوثة، واستُعين في كثير من مواضعه بالقصص والحكم مضافاً للآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، وكلّ ذلك كان بلغة سلسلة واضحة.

وقد ساهم عدّة من الإخوة الأفاضل في إعداد هذا الكتاب، فشكر الله سعيهم، وبارك جهودهم، وأحسن جزاءهم؛ ونخصّ بالذكر منهم: فضيلة الشيخ زياد الساعدي، وفضيلة الشيخ إسكندر الجعفري؛ إذ كان لهما دور كبيرٌ ومحوريٌّ في هذا العمل، فنسأل الله العليّ القدير لهما دوام التوفيق والسداد.

كما كان للأساتذة الكرام أعضاء اللجنة العلمية في المؤسسة - وهم كلّ من الدكتور السيّد حاتم البخاتي، والدكتور السيّد زيد البطّاط - جهودٌ

٢٠ الإنابة إلى الله

متواصلة في الإشراف العلمي على العمل والمراجعة المتأنيّة للكتاب، وإبداء الملاحظات القيّمة التي أسهمت في خروجه بهذه الحُلّة القشبيّة، فشكر الله سعيهم، وجزاهم خير جزاء المحسنين.

ونرى لزماً علينا أن نتقدّم بالشكر والامتنان لسماحة المتولّي الشرعي للعبة الحسينيّة المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (دامت بركاته)، على رعايته للمؤسّسة ودعمه لمشاريعها، فنسأل الله تعالى أن يمدّد في عمره، ويجعل هذا المشروع المبارك ذخراً له ولنا.

وختاماً: نرجو أن يساهم هذا العمل المتواضع في التعريف بشيءٍ يسيرٍ من علوم القرآن الكريم، والعترة الطاهرة (عليه السلام)، وأن يشارك في نشر الفضيلة والحُلُق الرفيع في مجتمعاتنا الإسلاميّة، ونسأل الله تعالى أن يتقبّل منّا ومن القائمين على هذا العمل والمنجزين له بأحسن القبول، وأن يجعله ذخراً لنا ولهم جميعاً يوم نلقاه؛ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿١﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٢﴾﴾. والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

الشيخ صباح الساعدي

مدير مؤسّسة الحُلُق العظيم

١٧/ ذي القعدة ١٤٤٤ هـ

٢٠٢٣/٦/٦ م

المقدمة

بالرغم من أن البشرية وصلت في عصرنا الراهن إلى مستوى من التطور المادي والعلمي فاق حتى ما كان يجول في الأذهان من خيال علمي في العصور السابقة، إلا أنَّها تشهد في الوقت نفسه مرحلةً مأساويةً على صعيد الواقع المعنوي والبُعدين الإيماني والأخلاقي، فنلاحظ أنَّ هناك تخبُّطاً واضحاً في هذا الاتجاه - نتج عنه كمٌّ هائل من الانحرافات على مستوى الأفراد والمجتمعات - وابتعاداً كبيراً عن المفاهيم الأخلاقية حتى على مستوى المجتمعات ككل، وكأنَّ هناك علاقةً عكسيةً بين المسارين، فكلَّما تطورت البشرية على المستوى العلمي والصناعي والتكنولوجي كلما تراجعت على المستوى المعنوي والأخلاقي، حتى انطوى الأمر على كثيرين فاعتقدوا أنَّ وراء هذا التعاكس ترابطاً وسببيةً، وأنَّ الاهتمام بالأمور المعنوية والغيبية هو سبب في عدم التطور والتقدم على المستوى العلمي والصناعي والتقني. ونحن هنا لسنا بصدد ردِّ مثل هذه المزاعم الباطلة التي تستند إلى التخمينات فقط، والتي ترتبط بقناعات شخصية مسبقة ومواقف سلبية من الدين والأخلاق متَّخذةً سلفاً معتمدةً على نظرة سطحية إلى الأمور، ولكن مع ذلك لا بأس بتسليط الضوء على ما نراه سبباً أو أحد أهم الأسباب التي تقف وراء

هذه العلاقة العكسية بين المسارين، وهو أنَّ الإنسان عادة يتأثر بالظروف التي تحيط به؛ حتى قيل: الإنسان ابنُ بيئته، فإذا كانت أنماط الحياة في غالب تفاصيلها تتجه نحو الأمور المادية وما يتعلق بها كان استثناسه بتلك الجوانب المادية أكثر، ويكون أكثر بعداً عن القيم المعنوية. وهذا لا يعني أنَّ الالتزام بالعقائد الدينية أو القيم الأخلاقية ونحو ذلك هو السبب وراء تخلف المجتمعات كما يروَّج له بعض المغالين، وإلا فما أكثر النماذج التي يمكن النقض بها على ذلك من الحضارات السابقة والمجتمعات الحالية التي لم يشكَّ التزامها بالعقائد الدينية والقيم الأخلاقية ونحو ذلك عائقاً عن التطور على الصعيد المادي.

وعلى أية حال، فنحن إذا تحدَّثنا عن واقع حال مجتمعاتنا في الوقت الراهن مع الغض عن الأسباب المساهمة في تكوين هذا الواقع، فلا نحتاج إلى الإطالة في الكلام من أجل إلفات نظر القارئ إلى ما وصلنا إليه من ابتعادٍ عن الدين وتعاليمه الأصيلة، كما لا نحتاج إلى إثبات الحاجة إلى تحمل طبقة النخبة من المجتمع - مؤسسات وأفراداً - كرجال الدين والمثقفين والرساليين الذين تقع على عاتقهم مسؤولية توعية المجتمع والتصدي للانحرافات وتقويم مسيره.

ومن مبدأ: أنَّ تضيءَ شمعةً خيرٌ من أن تسبَّ الظلام .. ومن باب تحمل المسؤولية رأينا ضرورة الإسهام في هذا الجانب، فقمنا بتأليف هذا الكتاب

الذي إن أمكننا اختزال مضمونه في كلمتين فنقول فيه: هو عبارة عن: تذكرة وإرشاد.

فهو تذكرة بالحاجة الماسة إلى الالتفات إلى أنفسنا وواقعنا الذي نعيشه وكيف وصلت بنا الأمور من جهة علاقتنا بالله سبحانه وتعالى ومستوى ارتباطنا بديننا الحنيف ومدى التزامنا بتعاليمه.

وهو إرشاد إلى الطريق المناسب والصحيح الذي ينبغي اتباعه في سبيل الإنابة إلى الله سبحانه والإنابة إليه. ولأجل ذلك اخترنا اسم (الإنابة إلى الله) عنواناً للكتاب الذي بين يديك.

ويقع الكلام في هذا الكتاب - بعد هذه المقدمة - بفصول أربعة وخاتمة، يتناول الفصل الأول منها بيان حقيقة الإنسان، وما هي وظيفته في عالم الوجود، وإثبات حاجته المستمرة إلى الإنابة إلى خالقه والإنابة إليه، وفي الفصل الثاني منها سوف يكون الحديث عن الخطوات التي يلزم الإنسان اتّباعها في طريق الإنابة إلى الله، وفي الفصل الثالث منها سيقع الكلام في العقبات التي تواجهه عادة في سيره في تلك الطريق، وفي الفصل الرابع والأخير سيكون الكلام في تحديد الإطار العام للبرنامج العملي الذي ينبغي اتباعه في سبيل الإنابة إلى الله تعالى والإنابة إليه.

الفصل الأول

الإنسان وحاجته إلى الإنابة إلى الله

الفصل الأول: الإنسان وحاجته إلى الإنابة إلى الله

ويقع الكلام في هذا الفصل عن حقيقة الإنسان، وعن اختصاصه بتحمل الأمانة ودخوله في امتحان التكليف في عالم الدنيا، وعن حاجته - وفق طبيعته - إلى الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى. وهذا ما سيتمثل بمباحث ثلاثة.

المبحث الأول: حقيقة الإنسان

الإنسان خليفة الله في الأرض ...

والإنسان يمتاز عن سائر المخلوقات ...

وهو قد كرمه الله وفضّله على كثير من خلقه ...

اعتدنا على تداول مثل هذه العبارات وما بمعناها ...

ولا نشعر بأي تردد أو تشكيك في قبولها والإذعان بمضامينها، فهي ملائمة

لوجداننا ولما عليه الواقع الخارجي، ولا نحتاج للاعتقاد بها إلى مثبتات وشواهد.

ولكن بالرغم من هذا إذا سئل أحدنا عن حقيقة الإنسان بوصفه كياناً

مركباً من جملة أمور^(١) وعن تفاصيل مكوّنات هذا المركّب وحقيقة كلّ منها

فسنجد صعوبة في الحصول على إجابات واضحة وشفافية.

(١) ولا نريد بهذا خصوص أجزائه المادية التي يتألّف منها بدنه، بل نقصد ما يتألّف منه تمام كيان

الإنسان المؤلف من جسم وروح ونفس وعقل.

فلو تأمل أحدنا في نفسه لوجد عالماً رحباً بل عوالم متعددة متداخلة فيه، تُثير الدهشة، وتدعو إلى التعمق في التأمل، واستكشاف ما فيها من خبايا لا تقلُّ من هذه الناحية عن العالم الخارجي وما فيه من عجائب وآيات ودلائل. وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١)؛ إذ قابلت الآية المباركة بين رؤية الآيات في أنفسنا - بني البشر - وبين رؤيتها في الآفاق، وكأنَّها تريد الإشارة إلى أنَّ ما في الإنسان نفسه من الآيات والدلائل والشواهد على الحق لا تقلُّ أهميةً عما هو موجود في العالم الخارجي. وهذا ما يؤكد أصحاب التفاسير؛ حيث يذكرون أنَّ للوصول إلى معرفة الخالق هناك طريقان، أحدهما: التفكير والتأمل في آثار الله في جسم الإنسان وروحه، وهذه (الآيات الأنفسية)، وثانيهما: التأمل في الآيات الخارجية الموجودة في الأرض والسماء، وهذه (الآيات الكونية). فالآية المذكورة تشير إلى كلا الطريقين^(٢).

وعلى أية حال، فكُلُّها تطورت العلوم وتوسَّعت دائرة معرفة الإنسان كُلِّها صار إدراك هذه الحقيقة أسهل، وكُلُّها تطورت وسائل تحصيل المعلومات والاطلاع على ما يتوصل إليه العلماء من حقائق كُلُّها صار سلوك الطريقين المذكورين معاً أو أحدهما أيسر، خصوصاً بعد هذا التحول الهائل في عالم

(١) فصلت: آية ٥٣.

(٢) أنظر: الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٤، ص ١٣٩ - ١٤٠.

التقنيات عموماً، وفي مجال الاتصالات وخدمات الإنترنت ومواقع التواصل الإلكتروني على نحو الخصوص، حتى صارت المقالات الثقافية والبحوث التخصصية في المجالات المختلفة في متناول أيدي الجميع تقريباً. ومن جملة تلك الكتابات ما يدخل في مجال الطب والتشريح وعلم النفس ونحو ذلك مما يتناول التفاصيل الدقيقة للإنسان، ومراجعته المتيسرة صارت تُغني مَنْ يريد الكتابة في هذا المجال عن إتعاب نفسه في استعراض أسرار تلك الحلقة العجيبة المتمثلة بالإنسان، وكيف تحسّدت به العوالم المختلفة، فمن عالم المادّة وُجد فيه جسمه، وجُعِل فيه قوة الحياة والحركة والنشاط حينما بُثَّت فيه النفس التي هي من عالم آخر، ومن عالم الأرواح كانت روحه^(١)، وزوّد من عالم آخر أيضاً بشيءٍ جَبَّار اسمه العقل وما له من قوّة التفكير التي بها قوامه وتعيّن بواسطتها وجهة مسيره ويتحدّد بها مصيره، فامتزجت فيه العوالم المختلفة، فكان حقّاً آية الله الكبرى، وحريراً بأن يكون خليفة الله في الأرض:

(١) اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في أنّ النفس والروح متحدان أو هما شيئان مختلفان، وفي تحديد ماهيتها. ويمكن لمن يريد الإطلاع على ذلك تفصيلاً مراجعة: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥٨، ص ٩١.

وذهب بعض الفلاسفة - كصدر المتألهين - إلى أنّ النفس تتكوّن في الإنسان بسبب امتزاج الأخلاط الطبيعية بعد استقرار النطفة في الرحم بفترة، وفي نفس الوقت تُبَثُّ في الجنين الروح، ومع تكوّن النفس تنشأ العواطف والأحاسيس والرغبات، وأمّا الروح فليس فيها رغبات. والذي يجيا ويموت هو النفس دون الروح؛ فإنّها خالدة. أنظر: الشيرازي، صدر المتألهين، الحكمة المتعالية: ج ٩، ص ٣٣.

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ^(١).

ومن المفارقات اللافتة أَنَّ الإنسان مع ما تفرَّد به من إمكانية على فهم ما حوله، بحيث أعطته هذه الخاصية قدرةً على التعامل مع جزئيات العالم الخارجي، فكان ذلك أهمَّ وسيلة له في التغلُّب على ظروف الطبيعة، بل وتطويعها وتوجيهها حسب رغباته، إن لم يكن هو الوسيلة الوحيدة لذلك. أقول: بالرغم من تلك القدرات العظيمة في هذا المجال نجده يلاقي صعوبةً في فهم حقيقة نفسه واكتشاف خباياها، ومن هنا قيل: إِنَّكَ لو سألتَ عشرين شخصاً عن النفس لجاءك عشرون جواباً مختلفاً، فهذا السؤال يُضاهي السؤال عن أسمائهم؛ لأنَّ كل واحد سيُجيب في ضوء انطباعاته الشخصية بحسب ملامح وجدانه وقسمات ضميره^(٢).

ولو اخترنا أن نكون أكثر واقعية من هذه الناحية، فنتجاوز أمر البحث عن حقيقة الروح وماهية النفس وهكذا العقل - فإنَّ هذا مما حارت فيه العقول واختلفت فيه الآراء^(٣)، ومهما قيل أو يقال في هذا المجال فهو يبقى في طور التخمين والظن - وذهبنا إلى مساحة آثار كلٍّ من تلك الأمور، أي: الروح والنفس والعقل. وأجلنا الفكر في ذلك، فلا نزداد آنذاك إلا حيرة

(١) والبيت يُنسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام. الباعوني الشافعي، محمد بن أحمد، جواهر المطالب في

فضائل علي بن أبي طالب: ج ٢، ص ١٣٦.

(٢) أنظر: العقاد، عباس محمود، الإنسان في القرآن: ص ٧.

(٣) أنظر: عيسى عبدة، وأحمد إسماعيل يحيى، حقيقة الإنسان: الباب الثاني، ص ٤١ وما بعدها.

وانبهاراً أمام ما يتجلى لنا من عظمة في الخَلقة، فبينما نجد أنَّ للإنسان جسماً مشابهاً من حيث المزايا العامة لنظائره من الأجسام الأخرى، إلا أنَّ هناك ما يجعل لجسم كل إنسان خصوصية بالنسبة له، حيث نراه يحركه وينتقل به من مكان إلى آخر بحسب رغبته وإرادته، فما هو ذاك المائز الذي يجعل الإنسان يتصرف بهذا الجسم بهذه الكيفية دون غيره من الأجسام الأخرى، وما هي تلك العُلقة العجيبة التي بيننا وبين أجسادنا؟!

ولا يقتصر الأمر على هذا الجانب، بل كما إنَّ لنا تأثيراً في أجسامنا ونكون نحن الفاعلين وهي المنفَعلة والمستقيلة لفعَلنا، فكَذلك لخصوصيات أجسامنا التأثير المباشر على ذاتنا وتحديد كياننا، فمَن يولد مشلولاً أو أعمى أو أبكم مثلاً ليس كَمَن يولد صحيح الجسم من ناحية فرص حصوله على ما يكمل به شخصيته ويشيّد به كيانه، بل إنَّ بعض الأمراض العصبية قد تعيقه تماماً عن مجاراة أقرانه في مراحل تطوير ذاته وبناء شخصيته. ولعلَّ أوضح مثال في هذا المجال ما يحصل للشخص في مراحل شيخوخته المتأخرة، من فقدان للذاكرة ونقص التركيز وعدم القدرة على المحافظة على ما كان حصل عليه في مراحل حياته السابقة، من امتيازات شخصية بسبب تلاشي خلايا دماغه ووهن جسمه عموماً؛ ولهذا قيل: العقل السليم في الجسم السليم.

وإذا كانت سائر الحيوانات أيضاً تشترك مع الإنسان في كثير مما تقدّم ذكره، فتعالَ معي إلى ما يمتاز به الإنسان ويميّزه عنها، وأعني به: ما يدخل في جانب التفكير والقدرة على الاستدلال والاستنتاج، فقد تشارك معه

الحيوانات في إدراك المحسوسات، وربّما كان لبعضها مقدار من الذاكرة والاحتفاظ بالمعلومة، ومن ثمّ مقايسة الوقائع الحادثة بما احتفظت به ذاكرته واتخاذ الموقف في ضوء ذلك، كما لو ضرب أطفال قطعاً مثلاً؛ فإنّه سيحتفظ بهذه الواقعة ببعض خصوصياتها؛ فلا يقترب ثانية من الأطفال عموماً، أو من أولئك الذين آذوه بالخصوص، بل وربّما كان هناك نسبة من الذكاء عند بعض الحيوانات كما يُنقل ذلك عن الشمبانزي والفيلة والدلافين مثلاً^(١)، ولكن بالرغم من ذلك يبقى الإنسان الكائن المميز في هذا المجال لما يملكه من قدرة على إدراك كثير من الأمور التي تكون متعذرة وغير ممكنة الإدراك عند سائر الحيوانات، من قبيل الكليات، أي: المفاهيم الكلية التي يكون وجودها الذهني - والذي هو عبارة عن صورة كلية فيها قابلية للانطباق على أفراد متعددة - معبراً عن الأفراد الخارجية المنظورة إليه وغير المنظورة، والموجودة فعلاً الآن وغير الموجودة حالياً، وإنّما سوف توجد في المستقبل مثلاً، وهكذا ترتيب القضايا الكلية بشكل يستنتج منه النتائج، أو يلاحظ الجزئيات ويستنتج منها نتائج يعممها إلى غير الموارد التي لاحظها. وهذا في الحقيقة هو تعبير ساذج وبسيط عن العمليات الفكرية التي يتميز بها الإنسان، والتي تُعدُّ أهمّ المواهب التي سُلِّح بها؛ فإليها يرجع كل تقدم أحرزه ويحرزه

(١) أنظر: مجلة (POPULAR SCIENCE) العلمية الأمريكية، والمنشور في الشبكة العنكبوتية على

على مستوى الأفراد والأمم والشعوب؛ فالفكر ثروة للإنسان وثورة؛ ولأجل هذا قالوا في تحديد الإنسان وتعريفه وتمييزه عن غيره بأنه: حيوان ناطق، بمعنى: مفكّر.

ولكن هل هذه هي الصفة الوحيدة التي امتاز بها الإنسان؟

الجواب: كلا، بل هناك صفة أخرى مهمة جداً يمتاز بها ولا يتم التركيز عليها عادة من قبل المناطق والفلاسفة والمفكرين، وهي صفة كونه ذا إرادة واختيار، فهو وإن كان مليئاً بالرغبات والشهوات والميول النفسية كسائر الحيوانات بل وأكثر، إلا أن لديه القدرة على تمييز ما هو الصحيح أو المناسب له، ومن ثمّ فهو قادر على أن يوازن الأمور ولا ينساق وراء شهواته ورغباته بشكل أعمى كما يحصل للحيوانات.

وهذه الميزة تمثل في الواقع شيئاً أساسياً في مسيرة الإنسان، وتعدّ هي العنصر الحيوي الذي تتحدّد في ضوئه قيمته وحجمه الفعلي في عالم الوجود وموقعه بين سائر المخلوقات، فقد ينظّم أوضاعه ويُمسك بزمام أموره، فيهدّب نفسه وينمّي ذاته باختيار ما يوصل لذلك والسير على وفقه، وإن كان خلاف أهوائه أو عكس مشتهياته، إلى أن يرقى بنفسه فيكون لنفسه كياناً عظيماً ويكون بين أرقى الكائنات وأشرفها، كما إنّه قد لا يُقاوم ضغوطات تلك الرغبات والشهوات، فينساق معها حتى يكون حيواناً في صورة إنسان، إن لم يستعن بما عنده من موهبة التفكير وملكة الاختيار في سبيل إشباع

شهواته ورغباته، فيكون أسوأ من جميع الحيوانات: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

والقرآن الكريم أكّد على هذه الصفة في الإنسان، وقد ورد عن النبي ﷺ - تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٢) - أن المقصود من النجدين طريقا الخير والشر، وأن الله سبحانه لم يجعل طريق الشرّ أحبّ إلى الإنسان من طريق الخير، بمعنى: أن نسبتهما إليه سواء، وهو يختار سلوك أيّ الطريقين^(٣)، بل فسّرت الأمانة التي حملها الإنسان بعدما عُرضت على السماوات والأرض والجبال^(٤) ورفضنها بالتكليف؛ فإنّ معنى رفض السماوات والأرض والجبال لها هو عدم قابليتهنّ لتحمله بحسب طبيعته واستعدادهنّ، بخلاف الإنسان الذي له إدراك وإرادة واختيار؛ فإنّه قبل به بحسب استعدادة وقابليته^(٥). ولهذا؛ فنحن من هذه الجهة مع مَنْ يختار - في تحديد الإنسان وتعريفه بـ: أنّه كائن مكلف ويفضّله على تعريفه بأنّه كائن ناطق؛ لأنّه تعبير أصوب وأشرف في التقدير^(٦).

(١) الأنفال: آية ٢٢.

(٢) البلد: آية ١٠.

(٣) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٦٣.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. الأحزاب: آية ٧٢.

(٥) أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥٧، ص ٢٨٠.

(٦) أنظر: العقّاد، عباس محمود، الإنسان في القرآن: ص ١٨.

وحينما سئل أمير المؤمنين عليه السلام عَمَّنْ هو الأفضل الإنسان أم الملائكة قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلاً بَلَا شَهْوَةَ، وَرَكَّبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةَ بَلَا عَقْلَ، وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلْتَيْهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلَهُ شَهْوَتُهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ»^(١)، فأفضلية الإنسان وعدمها ترتبط باختياره، والأمر فيه ليس ثابتاً لاختلاف أحواله ومراتبه بحسب ما يختار لنفسه من طريق.

المبحث الثاني: الإنسان وامتحان عالم الدنيا

يردُّ ابن آدم هذه الدنيا صغيراً لا إدراك له، ويتدرج في النمو فيكون طفلاً ثمّ مراهقاً ثمّ شاباً ثمّ كهلاً ثمّ شيخاً، ويُحِيلُ له أَنَّهُ ابن هذه الدُّنْيَا قد خُلِقَ لها، فلا يكون له همٌّ إلا بما يتعلَّقُ بها، فيعتني بنفسه، ويهتمُّ بذويه وأصحابه، ويفكر بمستقبله وكيف سيكون حاله، ويسعى لبناء دارٍ لسكنائه، ويوفر ما فيه راحته وراحة عياله، متوهماً أَنَّ ذلك هو غاية ما ينبغي أن يسعى إليه، وكأنَّه لا يعلم أَنَّ لهذه الحياة حدوداً، ولبدائيتها نهاية.

وفي الحقيقة، فَإِنَّ صعوبة امتحان الإنسان في عالم الدنيا تكمن في هذه النقطة بالتحديد، وهي انسياقه مع طبيعته البشرية ومتابعته لمتطلباتها الطبيعية واندفاعه وفق ذلك إلى سدِّ احتياجاته والاستجابة إلى ما تمليه عليه نفسه من

(١) الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج ١، ص ٥.

رغبات وشهوات؛ فإنَّ هذا بالتالي سيؤدي إلى استدراجه والانغماس في جزئيات الحياة ومتطلباتها، فيسير أحداً شطراً من حياته، وإذا به قد ابتعد عمّا فُطِرَ عليه من فطرة سليمة، وربّما يصل الأمر ببعضنا إلى أن ينقضي من عمره الأكثر وهو لم يلتفت إلى حاله وما آل إليه واقعه، من انهماك في تفاصيل الحياة التي لا تنتهي على حساب دينه، وإصلاح أمره وعلاقته مع خالقه.

فصحيح أنَّ مراعاة شؤوننا الدنيوية واجب يقتضيه الواقع، وتدعو إليه الفطرة، ويحثُّ عليه الدينُ الحنيفُ، ولكنَّ نظرةً بسيطةً إلى مَنْ سبقنا من الأجيال وإلى ما آل إليه مصيرهم تُرشدنا إلى أنَّ هذه الحياة الدُّنيا بما فيها من تفاصيل لا تمثِّل سوى مرحلةٍ من المراحل التي يمرُّ بها الإنسان في مسيرته، وأنَّها بلا شكَّ ستنتهي بالموت الذي لا بدَّ للعاقل من الاستعداد له.

وفي الحقيقة، فإنَّ إدراك هذه الحقيقة التي نعيشها باستمرار يكفيننا لكي ننتبه من غفلتنا ونستعدَّ لمصيرنا الذي لا خلاص منه^(١)، ولكن مع ذلك فقد أرسل الله لنا أنبياءً ورسلاً وأولياءً ليوقظونا من غفلتنا، ولطالما أكّدوا لنا على أنَّنا ما خُلِقنا لهذه الدار وأنَّها مجرد مرحلة لما هو الحياة الحقيقية: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(١) ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «لا وِجَعَ أَوْجَعُ للقلوب من الذنوب، ولا خوف أشدَّ من الموت، وكفى بما سلف تفكراً، وكفى بالموت واعظاً». الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي:

ج ٢، ص ٢٧٥.

(٢) العنكبوت: آية ٦٤.

فنتخيل كيف هي المعادلة التي تجري على وفقها أمورنا، وما هي مراحل سفرنا الطويل، فبينما أمامنا حياة أبدية تكون مساراتها خارجة - في وقتها - عن اختيارنا، نجدها مرهونة بحياتنا المحدودة في هذه الدنيا التي مهما طالت في حساباتنا فهي قصيرة ستختتم بالموت لا محالة. فـ: «الدُّنيا مزرعة الآخرة»^(١)، ومصيرنا في عالم الآخرة يتحدّد بما يكون منّا في الحياة الدُّنيا، فلا بدّ للعاقل من الالتفات والتوجّه للعمل على وفق هذه المعادلة، فيستغل هذه الفرصة الفريدة التي لن تتكرر، لتحديد مصيره الأبدي اليوم بيده، وغداً لا يكون له إلا حصاد ما زرعه وقطف ثمار ما أنبته، وما أحسن ما جاء في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال: «ألا إنّ أخوف ما أخافُ عليكم خلتان: اتِّباعُ الهوى وطولُ الأمل، أمّا اتِّباعُ الهوى فيصُدُّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنّ الدنيا قد ترَحَّلت مدبرةً وإنَّ الآخرة قد ترَحَّلت مقبلةً ولكلّ واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإنّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وإنَّ غداً حسابٌ ولا عملٌ»^(٢).

المبحث الثالث: الإنابة إلى الله

ومما تقدّم نعرف أنّنا - بني البشر - كلنا بحاجة إلى الإنابة إلى الله سبحانه وإلى ما جُبلنا عليه من فطرة؛ بسبب ابتعادنا عن فطرتنا السليمة على الأقل

(١) في ذلك حديث منسوب للنبي صلى الله عليه وآله، فلاحظ: الإحسائي، ابن أبي جهور، عوالي اللآلي: ج ١،

بسبب انسياقنا الطبيعي مع مقتضيات حياتنا المادية، فضلاً عما نرتكبه من مخالفات ومعاصٍ تؤدي بنا إلى الخروج عما رسمته لنا الشريعة من حدود، وبالتالي الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء أمر الله بالإنابة إليه مطلقاً وشاملاً للجميع، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾^(١)، أي: ارجعوا إليه^(٢).

والإنابة إلى الله لا تعني بالضرورة أنَّ الشخص يرجع إليه بعد أن كان عاصياً لله وبعيداً عن شريعته، بل قد يعود العبد إلى الله وهو في حال الطاعة؛ ولهذا وصف نبي الله إبراهيم عليه السلام بأنَّه منيب^(٣)؛ لأنَّه كان يرجع إلى الله في جميع أموره ويتوكل عليه^(٤).

وهنا نكتة لطيفة لا بأس بذكرها، وهي أنَّه هناك حاجةٌ واقعية وتكوينية فعلية لجميع المخلوقات - بما فيها الإنسان - وبشكل دائم إلى الخالق من جهة، افتقارها إلى إفاضة الإيجاد عليها في كلِّ آنٍ، فحالنا من هذه الناحية كحال النور الصادر من المصباح، فلو أطفئ المصباح لاختفى النور، وهكذا وجودنا نحن، فهو لا يتحقق من دون تلك الإفاضة المستمرة.

(١) الزمر: آية ٥٤.

(٢) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٨، ص ٤٠٨.

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ﴾. هود: آية ٧٥.

(٤) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٦، ص ٣٦.

وهذه الحقيقة في حد ذاتها تستوجب أن نلجأ إلى الله بشكل دائم ونستعين به، ونطلب منه حسن التقدير والتدبير في صغائر الأمور فضلاً عن كبائرها، وتوجب علينا أن نشكره باستمرار على نعمة الإيجاد وما يتفرع عليها من هبات وعطايا، فكيف إذا لاحظنا عنايته تعالى بنا وإحسانه إلينا وتوالي نعمه علينا؟!

إنَّ الالتفات إلى هذا وما يترتب عليه من اعتقادات ومشاعر هو في الحقيقة نوع من أنواع الإنابة إليه، وهو الملحوظ عند وصف إبراهيم عليه السلام بأنه منيب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾^(١).

وعلى أية حال، فنحن جميعاً بحاجة إلى الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، وتلافي ما فاتنا في الفترات السابقة من أعمارنا بالانشغال بالدنيا ومتطلباتها وانسياقنا مع رغباتنا وشهواتنا، بل وربما استغرق بعضنا في ذلك. ولكي لا تكون هذه الخطوة المصيرية في حياتنا عبثية وفوضوية فلا بد لكل أحد منا من اتباع خطة محددة لذلك يسير في ضوئها، وحيث إنَّ السير هو في طريق الإنابة إلى الخالق وشريعته فالمناسب ملاحظة ما يقرره الشرع نفسه من خطوات وحدود لتلك الطريق. وهذا ما سيكون الحديث عنه في الفصل الآتي.



الفصل الثاني

خطوات في طريق الإنابة إلى الله

الفصل الثاني : خطوات في طريق الإنابة إلى الله

إذا كان من اللازم على الإنسان أن يضع له خطةً ومنهاجاً لكل عمل مهمٍّ يُقبل عليه فأخرى به أن لا يغفل ذلك في عملية ترتيب أوضاعه على المستوى الديني والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وتدارك ما فاتته؛ لكي لا تذهب جهوده سُدىً، ويفوته من الوقت ما لا يمكن تعويضه. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا، وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَتُحْذِ مِنْهُمَا»^(١). وما أبلغها من حكمة! يفترض بكل واحد منّا أن يجعلها حاضرةً أمام عينيه دائماً؛ ليستغل كلَّ آنٍ في سبيل الوصول إلى أفضل ما يمكن أن يصل إليه من درجات الكمال التي لا تُنال من دون إجهاد النفس وإتباع البدن في سبيل تهذيب النفس وترويضها.

فالفُرصة - وإن لم تزل سانحةً ما دام في العمر بقية - إلا أن بقاءها غير مُحَرَّز، ولعلَّ الأجل يسبق إلينا فيخطفنا فتمرَّ هذه الفرصة علينا مرَّ السحاب، وإذا بنا نتحسّر على ما فات ونتوسّل بأن يُعطينا الله فرصة أخرى، ولا ينفع

(١) الآمدي، محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم: ص ١٥١.

آنذاك الندم ولا يُسمع لنا توسل: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾^(١).

ولكي يكون استثمار الفرصة مثالياً ومثمراً، فسنضع بين يدي القارئ الكريم برنامجاً عاماً يشتمل على الخطوات الأساسية التي ينبغي اتباعها في هذا المجال. وإجمال تلك الخطوات هو كالتالي:

١. الاعتراف بالتقصير والالتفات إلى أننا بحاجة إلى إصلاح لحالنا وتقويم لوضعنا على المستوى الديني.
 ٢. الاستغفار من الله وطلب الصفح منه سبحانه وتعالى.
 ٣. التوبة إلى الله تعالى.
 ٤. التعهد بالثبات على الاستقامة وعدم التهاون.
 ٥. مراقبة النفس.
 ٦. محاسبة النفس.
- فهذه خمس خطوات أساسية وضرورية لمن يريد الإنابة إلى الله، سنتحدث عنها تفصيلاً:

الخطوة الأولى: اعتراف وإقرار

وصف الإنسان في القرآن بأنه ضعيف^(٢)، وعجول^(٣)، وظلوم

(١) المؤمنون: آية ٩٩ - ١٠٠.

(٢) قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. النساء: آية ٢٨.

(٣) قال تعالى: ﴿وَيَعِجُّ الْإِنْسَانُ بِالسَّيْرِ دُعَاهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. الإسراء: آية ١١.

وجھول^(١)، ويؤوس وقنوط^(٢)، وهلوع^(٣)، وقتور^(٤)، وكفور وطاغ^(٥). ولا نعتقد أنَّ هناك حاجة إلى أكثر من الالتفات إلى أنفسنا لندرك ضعفنا وقلة حيلتنا أمام هذا البحر المترامي الأطراف المتلاطم الأمواج من الرغبات والشهوات والمغريات الدنيوية ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾^(٦). بل لو أدَّى الإنسان كلَّ وظائفه التي أوكلت له لما زال عنه شعوره بالتقصير والقصور تجاه رب العالمين وتصاغره أمام عظمته وسعة قدرته وتناهي إنعامه عليه^(٧).

-
- (١) قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. الأحزاب: آية ٧٢.
- (٢) قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾. فصلت: آية ٤٩.
- (٣) قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾. المعارج: آية ١٩.
- (٤) قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. الإسراء: آية ١٠٠.
- (٥) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾. العلق: آية ٦.
- (٦) القيامة: آية ١٤-١٥.

(٧) وقد جاء في بعض أدعية زين العابدين وإمام الساجدين في هذا الصدد ما تفرع منه النفوس، إذ جاء فيه: «يا إلهي، لو بكيْتُ إليك حتى تسقط أشفَارُ عيني، وأنتحبْتُ حتى ينقطع صوتي، وقُمْتُ لك حتى تنشر قدماي، وركعتُ لك حتى ينخلع صُلبي، وسجَدْتُ لك حتى تتَفَقَّأ حدقتاي، وأكَلْتُ تُرابَ الأرض طول عمري، وشربتُ ماءَ الرَّمَادِ آخرَ دهرِي، وذكرْتُكَ في خلال ذلك حتى يكل لساني، ثم لم أرفع طَرْفي إلى آفاق السماء استحياءً منك ما استوجبْتُ بذلك محوَ سيئةٍ واحدةٍ مِنْ سيئاتي». الصحيفة السجادية: ص ١٠٢. فإذا كان هذا حال الإمام المعصوم أمام الله سبحانه، فما بالك بغيره مَنْ لا يخلو من الغفلة ولا يغيب عن ساحة الذنوب ولا يخرج من دائرة التقصير؟!

وهذا الواقع هو الذي يدفع بعضهم إلى الجزأة على الله وترديد بيت الشعر القائل:

أَلْقَاهُ فِي السِّمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ^(١).

وكأنهم يقصدون أن الله خلق البشر بهذه الخلقة الضعيفة فجعله محاصراً بحاجاتٍ متناهية وشهوات ورغبات ملحة حتى كأنه مقهور على اتباعها، ومع ذلك كلّفه بمخالفتها وعدم اتباعها، فكان تكليفاً بما لا يطاق.

وهذا في الحقيقة يمثل مغالطة؛ فإنه سبحانه وإن جعل في الإنسان هذه الشهوات وتلك الرغبات، إلا أنه في الوقت نفسه سلّحه بفطرة سليمة وضمير حي لا يموت، يمجّ كل مبتذل، ويُنادي في داخله بكل ما هو خير، ووراء هذا ركب فيه عقلاً ذا قوة إدراكية وتمييزية جبّارة. ولم يقتصر الأمر على هذا وذاك، بل بعث الرسل والأنبياء والأولياء ليرشدوه ويهدوه إلى الطريق الصحيح. وبعد هذا كله لوح لهم بلطفٍ ورحمةٍ لا حدود لها. وقد ورد عن باقر العلوم عليه السلام أنه قال: «لا والله، ما أراد الله تعالى من الناس إلا خصلتين: أن يقرؤا له بالنعم فيزيدهم، وبالذنوب فيغفرها لهم»^(٢).

(١) يُنسب هذا البيت إلى الحسين بن منصور الخلاج. أنظر: البرمكي الإريلي، أحمد بن محمد بن

إبراهيم بن خلكان، وفيات الأعيان: ج ٢، ص ١٤٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٢٦.

وقد ورد في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال له: «يا أبا ذر، إِنَّ الكَيْسَ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ وَهَوَاهَا، وَتَمَتَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِي»^(١)، فالعَاقِلُ هو الذي يَتَّهَمُ نَفْسَهُ وَلَا يَتَّكِلُ عَلَى أَمَانِيهَا وَخُدَاعِهَا، ويعمل لآخرته فيقَدِّمُ لها من العمل الصالح ما ينفعه فيها. والعَاجِزُ يَغْتَرُّ بِأَمَانِيِّ النَّفْسِ، فلا يُقَدِّمُ لآخرته العمل الصالح، ويبقى يَمْنِي النفس بمثل أَنَّ الله سيغفر ذنبي ولا يعاقبني؛ لِأَنَّهُ الغفور الرحيم، وَأَنَّهُ لَا زال في العمر بقية وسوف أتدارك أمري في ما بعد، ونحو ذلك.

فلا بدَّ للعَاقِلِ أَنْ يَتَوَجَّهَ لذاته ويقول لنفسه: قف، إلى أينَ أَنْتَ ذاهب؟! ألا يكفيك ما مضى من عمرك ليكون لك واعظاً؟! فماذا جنيتَ في أيامِ عُمُرِكَ الماضية؟! وما هي الحصيللة التي خرجتَ بها؟! ألا يكفيك جنايةً بنفسك؟! يحكي لنا الإمام الباقر عليه السلام شيئاً من حال رسول الله ﷺ فيقول: إِنَّهُ فِي لَيْلَةٍ كَانَ عِنْدَ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، فَقَامَ مِنْ فِرَاشِهِ لِيَتَنَفَّلَ^(٢)، فاستيقظت زوجته فلم تجده، فقامت تطوف عليه باحثة عنه في أرجاء البيت، وبينما هي كذلك وإذا بها تَطَأُ عُنُقَهُ وهو ساجد بالِ، ويعترف لله بتقصيره ويطلب منه العفو والمغفرة^(٣). فإذا كان رسول الله ﷺ - وهو أكمل خلق الله - يعترف بالتقصير تجاه ربِّه، فما بالنا نحن الناس العاديين؟!

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٥٣٠.

(٢) أي: يأتي بالنوافل، فيصلي الصلوات المستحبة.

(٣) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣٢٤.

فالنبي ﷺ وإن كان معصوماً عن الخطأ، إلا أنه يرى نفسه مقصراً تجاه ربه، فإن المخلوق المحدود - مهما بلغ من درجة الكمال - لا يمكن أن يفِي بحق خالقه المطلق. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ حَقَّكَ اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْعِبَادُ، وَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْصِيَهَا الْعِبَادُ، وَلَكِنْ أَمْسُوا تَائِبِينَ وَأَصْبَحُوا تَائِبِينَ»^(١).

أفلا يكون حرياً بنا نحن - المقصّرين والمذنبين حقيقةً - أن تكون لنا وقفة جادة مع أنفسنا، فنخلو مع بارئنا في ساعة من ساعات الليل أو النهار، لتأمل في أنعم الله علينا وعظيم ما جاد به علينا من جهة، وفي ما قابلناه في ذلك من تقصير وذنوب وخطايا من جهة أخرى، فتأمل في كل ذلك سويعة، فنستذكر نِعَمَهُ تعالى واحدة واحدة، ونسترجع ذنوبنا واحداً واحداً، ونسأل أنفسنا أهكذا يكون جزاء الإحسان؟! فلو كان لي خادم أجود عليه بالنعم فيقابلني بالخيانة وسوء الخلق والجُرأة عليّ، فأعود وأقابله بما ابتدأتُ به معه من جود وإحسان، فيبقى على خيانتته لي وسوء خلقه معي، أفتراني أبقيه في دائرة رعايتي، وأستمرُّ في شموله بإحساني؟! بالتأكيد لا. فلماذا إذن أختار لنفسي هذا الطريق أمام خالقي والمنعم عليّ؟!

وفي الحقيقة، فإن من أخطر ما يقع فيه المرء في هذا المجال هو تصديق ما توسوس به نفسه، من أن حساب الله سيكون على وفق القناعات التي ارتكزت

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٥٢٧.

في باله، وينسى أو يتناسى أنَّ النفس إنَّما تخدع صاحبها، فهي تسوِّغ له أفعاله وتُعطي له الأعذار وتمرر عليه الخدع ليقنع ويتكاسل فيبقى في غيِّه. وهذا لا يغيِّر من الواقع شيئاً فالملائكة تكتب عليه ما تراه بعينها التي لا تخطئ الحقيقة، ومن ورائهم ربُّهم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(١)، فالأجدر بالعقل أن لا يصدِّق نفسه ولا يقبل تزكيتها: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢)، فعليه أن يقف مع نفسه بجِدٍّ ويحاسبها بصدقٍ قبل أن يُحاسب يوم القيامة، وتُستحضر أعماله قهراً، فلا يُسمع له عُذر ولا ينفعه الدفاع عن نفسه.

يقول المفكر والكاتب الإنكليزي في مجال التنمية البشرية ريتشارد تمبلر في كتابه (قواعد الحياة): «إِنْ كُنْتَ تشعر بالذنب فهذا إشارةٌ جيِّدة». وكذلك يقول: «الشخص السيِّئ لا يشعر بالذنب، إنَّه شديد الانشغال بسوئه، ولكنَّ الشخص الصالح هو الذي يشعر بالذنب؛ لأنَّه صالح ويشعر أنَّه قد اقترف خطأً، أو خذل شخصاً ما، أو أفسد شيئاً ما»^(٣)، فالحاجة إلى وقفة مصارحة مع النفس يستعرض فيها الشخص أخطائه ويعترف بتقصيره إذاً هي ليست من تعاليم الشرائع السماوية حصراً، بل هي حاجة يستشعر بها العقلاء عموماً بحكم وجدانهم.

(١) آل عمران: آية ١٢٠.

(٢) آل عمران: آية ١٨٨.

(٣) ريتشارد تمبلر، قواعد الحياة: ص ١٥٢.

أجل ينبغي أن لا يصل الأمر بالشخص حينما يتصارع مع نفسه إلى اليأس، فيلزمه أن لا ينسى وعد الله بالصفح والغفران لمن تاب وأناب، فلا بد له من الموازنة بين الخوف من عواقب ذنوبه والرجاء لعفو الله تعالى. وقد ورد في الحديث: «إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»^(١).

الخطوة الثانية: الاستغفار ممحاة للذنوب

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٢). وقد ورد في الحديث: «خير الدعاء الاستغفار»^(٣).

وقد تكرر في القرآن الكريم الوعد الرباني بأن الاستغفار موجب لغفران الذنوب، فقال عز من قائل: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانِ عَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٤)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٥)، وقال حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٦).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧١.

(٢) الأنفال: آية ٣٣.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٠٤.

(٤) النساء: آية ١٠٦.

(٥) النساء: آية ٦٤.

(٦) يوسف: آية ٩٨.

ومن اللطف بالعباد أن الله سبحانه يُمهّل المذنبَ من الصباح إلى الليل، لا يكتب عليه ما ارتكب من ذنب، فإن استغفر لم يسجل عليه بعد ذلك، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام):^(١)

ولكن ينبغي الالتفات إلى أن هذا في الحقيقة وإن كان فيه جانب تسهيل علينا ومصلحة لنا، إلا أنه يمثل حجةً علينا، فلو أهملنا هذه الفرصة ولم نستثمرها لصرنا مؤاخذين بذلك، وقد ورد في رواية أخرى: أن أحدَ الملكين الموكّلين بكتابة أعمالنا - وهو صاحب الحسنات - يقول للآخر إذا ما فاتت الفرصة ولم يستغفر المذنب: «اُكْتُبْ عَلَى الشَّقِيّ المحروم»^(٢). وهل هناك شقاء أكثر من ذلك، أو أن هناك محروماً بهذه المثابة؟!

وقد يُخيّل لنا أن الأمر بعد هذا سهل جداً، فما دام يمكننا أن نمحي ذنوبنا بالاستغفار، وهناك مهلة لعدّة ساعات تُعطى لنا برجاء أن نستغفر، فما أيسر الأمر إذن؟! ولا مشكلة إذا ما صدرت منّا المعاصي بعدما كان يمكن التدارك بالاستغفار ولو بعد ساعات.

ولكن الأمر ليس كذلك، فمن جهةٍ ربّما كان الاستغفار مجرد لقلقة لسان، وذلك إذا ما كان الشخص قلبه لا زال مُقبلاً على الذنب لم يُداخله الشعور بقبح ما صنع، وقد ورد في الحديث أن الذي يستغفر من الذنب وهو مقيم على ذنبه ومستمر فيه كالمستهزئ^(٣).

(١) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٧.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٨.

(٣) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٥.

ومن جهة أخرى، فمن قال بأنَّ العمر سيُمتدُّ حتى يحصل الشخص على فرصته في الاستغفار، فقد يُباغته الموت قبل ذلك.

ومن جهةٍ ثالثة، ربَّما يقع في مكر الله سبحانه ويُستدرج، فينسى الاستغفار أو يغفل عنه، والله نفسه حذَّرنَا من ذلك فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١). ولهذا ورد في الحديث^(٢) أَنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ أَتْبَعَهُ - بَعْدَمَا يُذْنِبُ - بِنَقْمَةٍ لِيَذْكُرَهُ بِالِاسْتِغْفَارِ، بَيْنَمَا إِذَا أَرَادَ بِهِ شَرًّا أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةٍ وَأَنْسَاهُ الْاسْتِغْفَارَ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣). فالاستدراج - كما يحدده الإمام عليه السلام - هو أن يجدد الله النعم للعبد حينما يُذنب فتلهيه تلك النعم عن الاستغفار^(٤).

والخطورة في الوقوع في ذلك تكمن في كون العبد لا يعلم بأنَّه مستدرج وأنه قد خُدِعَ ومُكِرَ به، فكيف يشتغل في العلاج وهو لم يُدرك أَنَّهُ واقع في المرض؟!

أجل، قد ينفع في هذا المجال تعويد النفس على الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى في كُلِّ صغيرة وكبيرة من شؤوننا، كي لا نخرج عن ساحة عنايته

(١) الأعراف: آية ٩٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) الأعراف: آية ١٨٢.

(٤) نفس المصدر. لم يعلم ما هو المقصود هل الكافي أم مصدر آخر؟

فِيكَلِّمُنَا إِلَى أَنْفُسِنَا، وَمَنْ أُوَكِّلَ إِلَى نَفْسِهِ هَلْكَ^(١)، وتعويدها على المداومة على الاستغفار دائماً، فقد عرفنا - مما تقدم في دعاء الإمام السجاد عليه السلام - أننا مهما صنعنا من المعروف وواظبنا على الطاعات نبقي قاصرين ومقصرين أمام الله سبحانه، فيتوجب علينا الاستغفار في جميع الأوقات والحالات، هذا مضافاً إلى أن الاستغفار هو بالتالي ذكر ودعاء، فالموظبة عليه لا تتوقف على ارتكاب الشخص للذنوب.

وينبغي الالتفات إلى أن من جملة فوائد المواظبة على الأذكار - والتي يلمسها المواظب عادةً - حصول حالة من التلبس ببعض الصفات المناسبة للذكر بشكل تدريجي، إلى أن تحصل للشخص بعض الملكات التي تكون جزءاً من شخصيته. فمن يواظب على ذكر ألفاظ الحمد والشكر على النعم سيستحضر معنى أن الله أغدق عليه النعم العظيمة التي لا يمكنه شكرها حق الشكر، وأنه لا يستحق شيئاً من ذلك أبداً، وإنما يكون ذلك كله بمن عليه من الله سبحانه وتعالى، فإذا كان كذلك تجسدت صفة الشكر في أفعاله بشكل تدريجي وانعكست على تصرفاته، فيأتي بالطاعات شكراً له تعالى، ويؤثر الآخرين على نفسه، فيرى كل ما لديه هو من الله سبحانه بلا استحقاق منه.

(١) وقد ورد في بعض أدعية تعقيبات الصلاة قوله عليه السلام: «وَلَا تَكَلِّمْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَدًا مَا أَحْيَيْتَنِي، لَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

وهكذا الذي يُدمن الاستغفار، فإنَّ ذلك سيكون سبباً في استحضار صورة تقصيره تجاه ربّه دائماً وأبداً، وسيكون ذلك سبباً في لجوئه إلى الله سبحانه في جميع حالاته.

الخطوة الثالثة: التوبة

لو لاحظنا خطاب هود عليه السلام ودعوته لقومه - التي حكيت في قوله تعالى: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(١) - لوجدنا أنَّ هذه الدعوة قد تضمَّنت الخطوات الثلاث التي ذكرناها وما زلنا بصدد الكلام في آخرها، ففي البداية دعاهم إلى الالتفات إلى تقصيرهم تجاه ربِّهم، وطلب منهم الإجابة إلى الله سبحانه وأنَّ انتبهوا إلى أنَّكم قد انحرفتم عن الصراط القويم وجانبتم الحقَّ في عبادتكم لغير الله سبحانه، فأنتم في دعواكم بوجود إلهٍ سوى الله مُفْتَرُونَ بِكُذْبِكُمْ عَلَى اللَّهِ بَأْسٌ لَهُ شَرِيكاً يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ؛ فأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَالْإِنِّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ثُمَّ بعدَ ذلك دعاهم إلى الاستغفار فقال: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: من

خطئكم وذبكم الذي اقترفتموه، ثم دعاهم إلى التوبة والإنابة إلى الله سبحانه، فقال: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾^(١).

وعلى أية حال، فالكلام في هذه الخطوة سيقع ضمن نقاط:

(١) ما هي حقيقة التوبة ؟

ومعنى التوبة في اللغة هو العودة في^(٢)، فالتوبة إلى الله تعني العودة والرجوع من الذنب إليه سبحانه^(٣)، وتحقق تلك العودة بالندم على الذنب، فالندم هو مصداق لما تتحقق به تلك العودة. ولهذا قيل في تعريفها: «هي الندم على القبيح في الماضي، والترك في الحال، والعزم على عدم المعاودة إليه في الاستقبال»^(٤).

(١) وفي الآيات الشريفة دلالة واضحة على مغايرة الاستغفار للتوبة، خلافاً لما يظهر من بعضهم من أنَّها بمعنى واحد؛ فإنَّها قالت: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾، فالعطف بـ (ثم) واضح في كونها معنيين مختلفين، كما يقال: اغسل يديك ثمَّ كُلْ، ولا يقال: اغسل يديك ثمَّ نظفهما بالماء والصابون؛ لأنَّ التنظيف بالماء والصابون هو نفس الغسل لا شيء يغايره. والفرق بينهما يكمن في أنَّ الاستغفار هو طلب المغفرة بالدعاء وغيره من الطاعة، بينما التوبة الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة. أنظر: أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية: ص ٤٨.

(٢) أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١، ص ٢٣٣.

(٣) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ١، ص ٩١.

(٤) القاضي، عبد العزيز بن البراج، جواهر الفقه: ص ٢٥١.

وعلى هذا فأركان التوبة ثلاثة:

الأول: الندم على ما اقترفه الشخص في السابق.

الثاني: الترك للذنب في الوقت الحالي.

الثالث: العزم والاصرار على عدم العود إلى الذنب ثانيةً.

ويبدو أنَّ هناك ملازمة - بحسب العادة - بين الركنين الأولين، فإنَّ مَنْ يندم على فعل شيء في السابق هو عادة لا يرتكبه في هذا الوقت الذي هو نادماً فيه، وعلى هذا فالأركان وإن كانت من الناحية النظرية ثلاثة، إلا أنَّها من الناحية العملية اثنان: الندم على الذنب، والعزم على عدم العود إليه.

(٢) التوبة بداية الانطلاقة

والتوبة في الواقع هي بداية انطلاقة العبد بالعودة إلى الحقِّ تعالى شأنه، فالتفاتُه إلى تقصيره وما ارتكبه من الذنوب كانت محطة توقف والتفات وتأمُّل، والاستغفار هو في الحقيقة بوابة دخول محطة التوبة والإنابة إلى الله سبحانه. وعندما كان العبد يسير في الاتجاه المعاكس بالابتعاد عن الله تعالى كانت هناك انعطافة مهمَّة، وهي: محطة الاعتراف بالتقصير والقصور، ومن ثمَّ يأتي الانطلاق والسير في الاتجاه المعاكس نحو الله سبحانه، والخروج من مستنقع الذنوب وميدان الشيطان، والهروب إليه سبحانه: ﴿فَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِيمٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١).

(١) الذاريات: آية ٥٠.

ومن شدة لطف الله بعباده نجده سبحانه يؤكد على مطلوبة التوبة، مع أنَّها في حدِّ نفسها تمثِّل تفضُّلاً منه تعالى علينا، ينبغي للعاقل منَّا أن يحرص هو على استثمارها وعدم تفويت هذه الفرصة العظيمة، ولكن مع ذلك نجد صاحب المبادرة والتفضل هو مَنْ يُحْثُّنا على عدم إهمالها؛ حتى ورد عن صادق أهل البيت (عليه السلام) قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ إِذَا تَابَ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا»^(١)، فقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِي الْحَثِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْأَمْرِ بِهَا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(٣)، و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم مِّنْ تَحْتِ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٤)، إلى غير ذلك من الآيات التي حثَّ فيها الله تعالى على التوجُّه إليه بالتوبة والإنابة.

(٣) التوبة ممحاة للذنوب

والآية الأخيرة واضحةٌ في أنَّ من آثار التوبة التي تترتب عليها غُفران الذنوب وتكفير السيئات، وبالتالي دخول الجنان، وكأنَّ التائب لم يرتكب ذنباً

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٦.

(٢) النور: آية ٣١.

(٣) هود: آية ٩٠.

(٤) التحريم: آية ٨.

ولم يذق لذة المعصية. وفي الواقع فإنَّ النصوص في هذا المعنى كثيرة، ويروى أنَّ بعضهم طلب من الإمام الباقر عليه السلام أن يصف له الإيمان، فذكر له الإمام عليه السلام من جملة أوصاف المؤمن أنَّ لا يلقى الله بذنبٍ أو وعد الله عليه بدخول صاحبه النار، فبادرَ بعضُ أصحاب الإمام عليه السلام فسأله متعجباً بأنَّه: أينَ يوجد مثل هذا الشخص الذي لا يلقى الله بذنبٍ أو وعد عليه النار؟! فأجابه الإمام عليه السلام: بأنَّ المقصود منه هو الذي يتوب من ذنبه الذي أُوعِدَ عليه النار، وليس المقصود مَنْ لم يرتكب الذنب أصلاً^(١). فاعتبر الإمام عليه السلام التائب مَنْ يلقى الله ولا ذنب عليه.

ويُذكر أنَّ يونس عليه السلام بعدما يئس من قومه ومن رجوعهم عن كفرهم غضب ودعا عليهم، وعزم على هجرانهم والرحيل عنهم، فتركهم يلاقون مصير عنادهم وغييهم، فلما اتَّهَمُ نُذِرُ العذاب وعلموا أنَّ عذاب الله آتٍ لا محالة تابوا إلى الله سبحانه والتجأوا إليه، فخرجوا إلى الصحراء ومعهم النساء والأطفال والدواب، وفرَّقوا بين الوالدات وأولادهنَّ، ففعلوا ذلك حتى في الحيوانات ليحنَّ بعضها إلى بعضٍ، وَعَلَتْ أصواتُها واختلطتْ أصواتُ الآدميينَ بأصواتِ الحيواناتِ، فرحمهم الله وَرَفَعَ عَنْهُمْ العذابَ، ورجعوا إلى ديارهم آمنين^(٢)، فلم يمنع عظيم ما ارتكبه من ذنب، وهو الكفر - ولا

(١) أنظر: الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٣٨١.

(٢) أنظر: مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف: ج ٤، ص ١٩٣.

غضب النبي ﷺ ودعاؤه عليهم - من أن يتقبل الله توبتهم ويعفو عنهم، فيدفع عنهم العذاب الذي كان مُحْدَقاً بهم.

(٤) بالتوبة تُستر العيوب

ولا يقتصر أمر التوبة على غفران الذنوب التي اقترُفت، بل هناك أثر آخر يترتب عليها، وهو أنَّ الله سبحانه يستر على العبد وكأنَّه لم تصدر منه معصية، فغفران الذنوب يعني عدم ترتب آثارها عليه يوم القيامة من احتسابها ضمن السيئات وثبوت العقاب عليها، وأمَّا السترُ المقصود هنا فهو بمنزلة محو السيئة نفسها، لا أثرها المترتب عليها، بل تمحى تماماً وكأنَّها لم تصدر من العبد أصلاً؛ فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فسترَ عليه في الدنيا والآخرة»، فيسأله بعض أصحابه: وكيف يستر عليه؟ فأجابه عليه السلام: «يُنسي ملكه ما كتب عليه من الذُّنوب ويُوحي إلى جوارحه: اكْتُمِي عليه ذنوبه، ويُوحي إلى بقاع الأرض اكْتُمِي ما كان يعملُ عليك من الذُّنوب، فيُلْقَى الله حين يلقاهُ وليس شيءٌ يشهدُ عليه بشيءٍ من الذنوب»^(١).

وقد يصعب على بعضنا تقبُّل مثل هذا المعنى، فكيف يمكن تصوُّر أنَّ الذي يرتكب الذنوب ويخوض في المعاصي تُمحي له تلك الذنوب وكأنَّها لم تحصل، لدرجة أنَّ الجوارح والأرض تكتُم عليه، والملائكة تنسى ما اقترف،

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٠.

وهل يكون حاله كحال ذاك الذي لم يقترف ذنباً وحرّم نفسه من المملّذات في سبيل الله تعالى؟!

وفي الحقيقة فإنّ مثل هذا التساؤل يعبر عن منهج للتفكير عند بعضٍ ومسلّكٍ للاعتقاد لديهم، ولا يقتصر على مورد الكلام - أعني: التوبة والستر بها - بل يشمل مثل شفاعة النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، وترتّب الآثار العظيمة على بعض الأفعال اليسيرة^(١)، فيستبعدون هذا وذاك ويضيقون على الناس في ذلك. وما نريد قوله هنا: إنّ لا ينبغي لنا أن نُفلسِف القضايا الشرعية والاعتقادية دائماً، فبعض المطالب تكون وجدانية وواضحة يكفي في إثباتها الالتفات إلى الفطرة والرجوع إلى الوجدان، ففي مورد كلامنا مثلاً كانت الرواية تقول: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة»، فعبرت عن الذي يتوب توبة نصوحاً - وهي التوبة الصادقة الخالصة التي لا شائبة فيها^(٢) - بأنّه أحبه الله، فإذا تحقق هذا الحب الإلهي فهل يبقى ذاك الاستبعاد لما ذكر من الستر وما يتعلّق به، ولننقّس الأمر على أيّ شخص ممّن نحن، فلو أخطأ ولذُك في حقّك خطأ كبيراً، ثمّ عاد لك وارتمى

(١) كالشّواب الوارد في زيارة الحسين عليه السلام. أنظر: القمي، جعفر بن محمد بن قولويه، كامل

الزيارات: ص ١٢٢ وما بعدها.

(٢) أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٣، ص ١١٩. وأيضاً: الطريحي، فخر الدين،

مجمع البحرين: ج ٢، ص ٤١٨.

الفصل الثاني: خطوات في طريق الإنابة إلى الله ٦١

بحضنك باكياً ومتوسلاً إليك مقبلاً يديك ورجليك، فما هو شعورك تجاهه،
أما كنت تقبل اعتذاره؟! وافترض أنه بعد ذلك بقي على حالة من الخضوع
لك والتوسل إليك والطاعة لك طامعاً في إرضائك والتودّد منك، فما هو
شعورك تجاهه آنذاك؟! أَلَسْتَ تضمُّه إليك وترضى عنه؟! ألا تَهَبَ له كلّ ما
تقدّر عليه؟! وهل ترضى أن يذكر بعضُ أهلك تلك المثلبة التي ارتكبتها
ولذلك معك أمام الناس، أو أن يطرقوا بها سمعك أنتَ خاصّة؟! بالتأكيد لن
يكون ذلك ولا يفعله إلا مَنْ ابتعد عن فطرته وسيطرت عليه الأمراض
النفسية، فما بالكَ والمقصود بالتوبة هو الله الرؤوف الرحيم، وهو الذي
يخاطبه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «أَنْتَ أَرْأَفُ بِي مِنْ أَبِي وَأُمِّي، وَلَوْلَا رَأْفَتُكَ لَمَّا
عَظَفَا عَلَيَّ»^(١).

هذا، ولكن ينبغي الالتفات إلى أننا في الوقت الذي نقبل فيه مضمون
الرواية المذكورة ونعدّه موافقاً للوجدان وأنه لا وجه لاستبعاده، ففي الوقت
نفسه نوَكِّد على أن ذلك ينبغي أن لا يجعلنا نستسهل الأمر، فيدعنا ذلك إلى
التسامح والتساهل مع أنفسنا والتهاون في أمر المعاصي وارتكاب الذنوب،
فإنَّ تلك الآثار إنَّما تترتب على التوبة النصوح الصادقة كما عرفت، ونفس
افتراض كونها صادقة يتنافى مع الشعور الذي تحاول النفس أن تخدعنا به من
التسامح في أمر المعاصي اتكالاً على مسألة فتح باب التوبة، فإنَّ التوبة حتى لو

(١) ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، إقبال الأعمال: ص ٥٢١.

حصلت كنتيجة لهذا الدافع فإنها قد لا تترتب عليها جميع تلك الآثار؛ لعدم وصولها إلى مرتبة كونها صادقةً ونصوحاً. هذا مضافاً إلى أنه لا يُعلم أننا نوقّق للتوبة، وقد تقدم في بحث الاستغفار أن الله قد يستدرج العبد ويُنسيه أو يُلهيه عن الاستغفار، خصوصاً وأنّ الاتكال على الشعور المذكور من أن باب التوبة مفتوح فيقع التسامح بالمعاصي هو نوع من أنواع المكر مع الله عزّ وجل: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)، ولهذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة»^(٢).

وخذ مثلاً على ذلك ما جرى لإخوة يوسف عليه السلام حينما أقنعوا أنفسهم بالتوبة في ما بعد؛ ليفعلوا بأخيهم فعلتهم، فقال بعضهم لبعض: ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(٣)، ولكنهم لم يوفقوا للتوبة بعد ذلك، بالرغم من علمهم بها، بل وعزمهم عليها مسبقاً قبل اقرار جريمتهم.

وكان عمر بن سعد يمّني نفسه بالتوبة؛ فقَبِلَ بما أُوكل إليه من مهمة مقاتلة أهل بيت النبوة عليه السلام، وهو يعلم أنّها من أكبر جرائم الدهر، فأنشد في ذلك يقول:

(١) الأنعام: آية ١٢٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٥١.

(٣) يوسف: آية ٩.

يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَتَعْذِيبٍ وَغِلَّ يَدَيْنِ
فَإِنْ صَدَقُوا مِمَّا يَقُولُونَ إِنَّنِي أَتُوبُ إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ سِتِّينَ
وَإِنْ كَذِبُوا فَرْنَا بِدُنْيَا عَظِيمَةٍ وَمُلْكٍ عَقِيمٍ دَائِمٍ الْحَجَلَيْنِ
وَإِنَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يَغْفِرُ زَلَّتَنِي وَلَوْ كُنْتُ فِيهَا أَظْلَمَ الثَّقَلَيْنِ^(١)

وكلنا يعلم بأن عمر بن سعد لم يوفق بعدها للتوبة، بالرغم من تراجع بني أمية عن وعودهم له من تأميره على الري.

(٥) إبدال السيئات بحسنات

ولا يقتصر أثر التوبة على غفران الذنوب ومحوها بالشكل المتقدم، بل أكثر من ذلك، فحينما يتوب العبد يبذل الله سيئاته حسنات. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿^(٢).

ويجدر بنا الوقوف مع هاتين الآيتين الشريفتين قليلاً للتأمل فيهما؛ فإننا إذا لاحظنا ما قبلهما وجدنا هاتين الآيتين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدْ فِيهِ مُهَكَمًا ﴿^(٣). وهما - بحسب ملاحظة

(١) ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، اللهوف في قتل الطفوف: ص ١٩٣.

(٢) الفرقان: آية ٧٠ - ٧١.

(٣) الفرقان: آية ٦٨ - ٦٩.

ما قبلها أيضاً - في سياق ذكر أوصاف المؤمنين من عباد الرحمن^(١)، وقد جاء فيها أن من أوصافهم أنهم لا يشركون بالله، ولا يقتلون النفس المحترمة ولا يزنون. ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، بأن يرتكب شيئاً من هذه الذنوب، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾، أي: عقوبةً وجزاءً^(٢)، ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا﴾، أي: يُخْلَدُ في النار مُسْتَحَقًّا به^(٣)، ثم جاءت الآيتان الشريفتان اللتان نقلناهما أولاً ليُستثنى فيهما التائب، ويكون المعنى: أن مَنْ يفعل هذه الذنوب الكبيرة جداً سيلقى جزاءً ذلك ويُضاعف عليه العذاب، فيكون مصيره الخلود في جهنم ذليلاً مستحقاً به، إلا إذا تاب وآمن وعمل صالحاً؛ فإنه تُغفر له ذنوبه تلك وتُبدل سيئاته بحسنات.

فتخيل معي - أيها القارئ الكريم - أن الذي يرتكب الذنوب لا تُمحى له تلك الذنوب ويُعفى عنه وحسب، بل ويتم إبدال تلك السيئات بحسنات، بمجرد أن يندم على ما فعل حقاً، ويعزم على عدم العود إليه، ويُنيب إلى الله، فيأتيه لاجئاً إليه متوسلاً به. فأَيُّ تَفَضُّلٍ هذا الذي يقابلنا به الله عز وجل، وأيُّ رَأْفَةٍ تلك التي يعرضها علينا ويُمَنِّينا بها، ونحن غافلون عنها غير مباليين بها؟!

(١) إذ كانتا في سياق قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ...

(٢) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٧، ص ٥٠٨. وأيضاً: الطبرسي،

الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٧، ص ٣١٢.

(٣) المصدر السابق.

وفي الواقع، فإنَّه يمكننا من هذه الحقيقة أن نستلهم جواباً عما قد يخطر في البال من تساؤل عن الوجه في كون عذاب الله سبحانه بهذه الدرجة من الشدَّة، مع ما نسمعه ونلمسه من رحمة الله عزَّ وجلَّ وجميل لطفه؛ فبعد الاطلاع على مثل هذه الحقيقة - ومعرفة أن أبواب الرحمة الإلهية مشرَّعة بهذا النحو - لا يبقى استغرابٌ في إثبات أشدَّ أنواع العقوبات على مَنْ أغفل الولوج من تلك الأبواب والدخول في رحمة الله ورضوانه، فأَيُّ مستوى من الشقاء وصل إليه مثل هذا الشخص، بحيث تراه يفعل ما يُسخط ربَّه الجبار المقتدر متحدِّياً إيَّاه متجرئاً عليه، ثمَّ يقابله ربُّه - وهو ذاك المقتدر الجبار - بفتح أبواب التوبة والإنابة إليه، ويقول له: هَلُمَّ إِلَيَّ أَغْفِرْ لَكَ جَرَأتَكَ تلك، وأَمْحُ ما اقترفتَ من ذنب، وأزِدْكَ مِنِّي فَضْلاً بأنَّ أُبْدِلَ سيئاتك تلك بحسناتٍ؛ ليكون جزاؤك الخلود في نعيم الجنَّة، بدل النار والعذاب الأليم، ثمَّ لا تجد من المذنب إلا العناد والاستمرار في البقاء في ساحة العصيان والبروز أمام الله جلَّ وعلا؟! فهل يكون هناك جزاء مناسب لمثل هكذا شخص غير الخلود في جهنَّم؟! ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١).

(٦) التوبة رفعةٌ ورقِيٌّ

ينقل لنا أبو حمزة الثمالي عليه السلام قصَّة يحكيها إمامنا الباقر عليه السلام جاء فيها: أن رجلاً ركب البحرَ ومعه أهله فكسِرَ بهم المركب، فغرقوا ولم ينجُ إلا امرأة

الرجل، فإنَّها نَجَتْ على لوحٍ من ألواح السفينة، فأخذتها أمواج البحر إلى ساحل جزيرة من جزائر البحر، وكان في تلك الجزيرة شاب يقطع الطريق ولم يدعَ لله حرمةً إلا انتهكها، فإذا به يتفاجأ بالمرأة قائمة على رأسه، فرفع رأسه إليها فقال: إنسيَّة أم جُنية؟ فقالت: إنسية. فلم يكلمها كلمةً حتى جلس منها مجلس الرجل من أهله، وهو يهْمُ بها، وهو كذلك، فإذا بها ترتبك وتضطرب، فقال لها: ما لك تضطربين؟! فقالت: أخاف من هذا - وأشارت بيدها إلى السماء - فقال لها: فارتكبتِ الزنا من قَبْل؟ فأقسمت له على أنَّها لم تفعل ذلك، فقال: فأنتِ تخافين الله هكذا وأنتِ لم تفعلي هذا الشيء بإرادتك، وإنما أُكْرِهُكَ عليه إكراهاً! فأنا والله أوَّلُ بهذا الخوف وأحقُّ به منك. فندم وقام عنها ورجع إلى أهله لا يحدثُ نفسه إلا بالتوبة، وفي طريق العودة صادفه راهبٌ يمشي في الطريق فصَحَّبه، فحميتُ عليهما الشمسُ فقال الراهب للشاب: ادعُ الله يظلنا بغمامةٍ، فقد حميتُ علينا الشمسُ. فقال الشاب: ما أعلم أن لي عند ربي حسنةً فكيف يمكنني أن أتجاسر فأدعوه؟! فقال الراهب: سأدعو أنا وتوَمَّن أنت. فأقبل الراهب يدعو والشاب يقول: آمين، وإذا بغمامةٍ تكون فوقهما فتُظِلُّهما أينما يسيران، ثمَّ وصلا مفترق طريقين فاتخذَ كُلُّ واحد منهما طريقاً، فإذا السحابة تتبع الشاب، فاستغرب الراهب وقال للشاب: أخبرني ما قصتك؟ فأخبره بخبر المرأة، فقال له الراهب: غُفِرَ لك ما مضى لأجل خوفك من الله، فأنظر كيف تكون في ما تستقبل من الأعمال^(١).

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٩. ونقلنا الرواية بالمعنى.

فلاحظ كيف أثَّرت التوبة ورفعت من مقام هذا الشاب حتى جعلته في مصافِّ الأولياء. وهذا الأمر يعتمد بطبيعة الحال على مستوى توبة الشخص ودرجة إخلاصه فيها بكل تأكيد.

وَمَنْ مَنَّا لم يسمع بقصة بشر الحافي حينما مرَّ الإمام الكاظم عليه السلام بداره، وإذا بأصوات اللهو والغناء تصكُّ أسمع كل مارٍّ، وإذا بجارية تخرج من الدار ويدها قمامة، فسألها الإمام عليه السلام وقال لها: يا جارية! صاحبُ هذه الدار حرٌّ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حرٌّ. فقال: صدقتِ، لو كان عبداً خاف من مولاه! فلما دخلت قال مولاه وهو على مائدة السكر: ما أبطأكِ علينا؟ فقالت: حدَّثني رجلٌ بكذا وكذا. وحكَّتْ له ما جرى، فخرج حافياً حتى لقيَ الإمام الكاظم عليه السلام فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفتَ بالباب وخاطبتَ الجارية؟ قال له عليه السلام: نعم. فقال له بشر: أعد عليَّ الكلام. فأعاده عليه الإمام عليه السلام، فبادر إلى الأرض يمرِّغ بها خديهِ وهو يقول: بَلْ عَبْدٌ! عَبْدٌ! ثُمَّ هَامَ على وجهه حافياً حاسراً حتى عُرِفَ بالخفاء، فتاب من حينها، وبقي يتنقَّل حافياً، فقيل له: لم لا تلبسُ نعلًا؟ فقال: ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ، فلا أزل عن هذه الحالة حتَّى الممات^(١). وقد استقام حتى أثَّرت عنه الكرامات^(٢)، فَمِنْ عاصي

(١) العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، منهاج الكرامة: ص ٩٠. والمقدسي، عبد الله بن

أحمد بن محمد بن قدامة، كتاب التوايين: ص ٢١١.

(٢) لاحظ: المقدسي، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، كتاب التوايين: ص ٢١٢.

ملازم لما حَرَّمَ الله يتحوَّل إلى رجلٍ صالحٍ يُذكر في جملة الصالحين وأهل الكرامات؛ كل ذلك بسبب توبته ورجوعه إلى ربِّه.

وَمَنْ يَطَّلِعْ عَلَى نِظَائِرِ ذَلِكَ مِنْ قِصَصِ التَّائِبِينَ يَجِدُ تَجَسُّدًا وَاقِعِيًّا لِمَقُولَةِ الْمَنَسُوبَةِ لِمَوْلَانَا صَادِقِ أَهْلِ الْبَيْتِ (عليه السلام): «التَّوْبَةُ حَبْلُ اللَّهِ وَمَدَدُ عِنَايَتِهِ»^(١).

تنويه:

وينبغي أن لا يفارقنا حُسْنُ الظَّنِّ بالله، وأن لا نفصح مجالاً للشيطان لعنه الله، فيستغل حالة الشعور بالتقصير التي يشعر بها الْمُقَصِّرُ والمُذنب؛ فيحوِّلها من حالةٍ إيجابية إلى حالةٍ سلبية، فيدبُّ اليأس في نفسه، ويحكم عليها بالبقاء في الهلكة والعياذ بالله، بل ليَكُنْ عند العبد تعلُّقٌ بحبل الرجاء الذي مَدَّه له ربُّه الرؤوف الرحيم، وإذا دعاه تقصيره وارتكابه لذنبه إلى الشعور بالخجل من الله تعالى والاعتراف باستحقاقه أشدَّ العقوبات على ذلك، فليُنظر إلى سعة رحمة ربِّه وعظيم لطفه بعباده، فهو سبحانه يدعونا إلى أن نتعبد معه بالإنابة إليه والركون إلى حُسْنِ الظَّنِّ به، فيلزم أن لا يكون منَّا ما يتنافى مع ذلك. وقد ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ: «أَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ بِي، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا»^(٢).

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٦، ص ٣١ نقلاً عن مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق (عليه السلام).

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٧٢.

وفي هذا الحديث تلميحٌ إلى فائدة مهمة جداً على المستوى العملي في سلوكياتنا مع الله سبحانه وتعالى، وحاصلها: أننا لا ينبغي أن نبتعد عما يريده الله منا مهما كان الداعي لذلك؛ فيُفترض بالمؤمن أن يربِّي نفسه على النظر إلى ما يريده الله سبحانه وتعالى، وأن لا يُعطي المجال للتبرُّع ببعض الزيادات أو التفصيلات مثلاً ولأي داعٍ كان. فمثلاً قد يتوهم المرء أن الخير هو في الشدُّد دائماً وأنَّ الفَلَاحَ هو في التضييق على النفس أبداً، فتراه يتخذ ذلك مسلكاً ويكون له منهاجاً، مع أنَّ حقيقة العبودية هي الانقياد التَّامُّ للمعبود. وهذا جارٍ على جميع الأصعدة، فكما هو جارٍ على مستوى الأفعال والعبادات العملية - كالصلاة والصوم والحج مثلاً - فهو كذلك جارٍ على مستوى الاعتقادات والسلوكيات النفسية؛ فإذا كان الخالق والمعبود يريد منِّي أنا المقصّر في حقِّه أن أحسنَ الظنَّ به وأن آتية نادماً ومنكسراً على ما ارتكبته من جهة، وطامعاً برحمته لكي يغفر لي خطيئتي وكلِّي يقين بذلك، فلماذا أُغَيِّرُ ما رسمه الله وأخالف ما أَراده منِّي؟! إنَّ ذلك عين الوقوع في المخالفة، وأيُّ مخالفةٍ هذه؟! إنَّها في الحقيقة خرقٌ لحدود العبودية وعنادٌ لما يقتضيه الانقياد للمعبود. ألا ترى أنَّ إبليس اللعين حينما أمره الله سبحانه بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام عَرَضَ على الله عزَّ وجلَّ أن يعبدَه عبادةً لم يعبدَها ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ على أنَّ يعفيه الله من السجود لآدم فأثاه الجواب: لا حاجة لي إلى عبادتك، إنَّما أريدُ أن أعبدَ من حيث أريد لا من حيث تُريدُ^(١).

(١) القمِّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمِّي: ج ١، ص ٤٢.

وهنا قضية تجدر الإشارة إليها، وهي أنَّ الشخص قد يتوب من الذنب، فيُصِبه الندَم ويترك الذنب خالصاً لوجه الله تعالى، وقد عقد العزم على عدم العودِ إلى ما كان عليه جزماً، ثمَّ بعد ذلك يقع في شَرَك الشيطان اللعين فيرتكب الذنبَ نفسَه، فيُصاب بالإحباط وربَّما يستسلمُ لإغواء إبليس لعنه الله وإملاءاته وأنَّه لا مجال لقبول توبتك، وأنَّك مسخوط عليك لا محالة، فيستدرجه إلى الوقوع في اليأس من رَوح الله ورحمته وبالتالي يتوجَّه به إلى إعطاء العنانَ لنفسه في اتباع الشهوات وارتكاب المحرَّمات. وهذه قضية يُبتلى بها المؤمنُ عادةً؛ ولهذا تجد أنَّ أصحاب أئمتنا عليهم السلام يسألون عن ذلك، فهذا محمد بن مسلم يروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنَّه قال له: «يا محمد بن مسلم، ذنوبُ المؤمنِ إذا تابَ منها مَغْفُورَةٌ له فَلْيَعْمَلِ المؤمنُ لما يَسْتَأْنَفُ بَعْدَ التَّوْبَةِ والمَغْفِرَةِ، أَمَّا وَاللهُ إِنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ. فقلت: فَإِنْ عَادَ بَعْدَ التَّوْبَةِ والاستغفارِ مِنَ الذُّنُوبِ وعَادَ فِي التَّوْبَةِ؟! فقال: يا محمد بن مسلم، أَتَرَى الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَنْدُمُ عَلَى ذَنْبِهِ وَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ ثُمَّ لَا يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَتَهُ؟! قلت: فَإِنَّهُ فَعَلَ ذلكَ مِرَاراً يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ وَيَسْتَغْفِرُ اللهُ. فقال: كُلُّمَا عَادَ الْمُؤْمِنُ بِالاستغفارِ والتَّوْبَةِ عَادَ اللهُ عَلَيْهِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُقْنَطَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»^(١). وفي الحقيقة فَإِنَّ الإمام عليه السلام

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٣٤.

أراد إرجاع محمد بن مسلم إلى الوجدان الذي أشرنا إليه سابقاً، فقال له: «أَتَرَى الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَنْدُمُ عَلَى ذَنْبِهِ وَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ ثُمَّ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَتَهُ؟!». هذا، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنَّ هذا لا يعني أنَّ يتَّكَلَّ المرءُ على ذلك، فيكون هذا داعياً لاستئناف الذنوب فتتَحَجَّجَ نفسه بأنَّ باب التوبة مفتوح وتُثَقِّنَه بأنَّك بعد الذنب تائبٌ ومغفورٌ لك، فقد عرفت سابقاً أنَّ هذا مِنْ مكر الشيطان ووسوسة النَّفْسِ، وفي الحقيقة فإنَّ مثل هذا الشخص لا يصدق عليه أَنَّهُ تَائِبٌ حَقًّا، بل هو قائمٌ على ذنبه، وقد ورد: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَالْمَقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ وَهُوَ مُسْتَغْفَرٌ مِنْهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ»^(١).

(٧) لزوم ردِّ حقوق الآخرين

وينبغي الالتفات إلى أنَّ ما ذكرناه من محو التوبة للذنوب وآثارها هو ثابت في ما لو لم يكن الذنب يتضمَّن التعدِّي على حقوق الناس، وإلا لزم استرضائهم وردُّ حقوقهم إليهم، فالذي أخذَ ما لا من الآخرين يتوجَّبُ عليه ردُّه إلى أصحابه، والذي تعدَّى على غيره بِجَرَحٍ ونحوه يلزمه استرضاء المتعدِّي عليه، والذي اغتاب شخصاً من الناس يتوجَّبُ عليه طلب براءة الذمة منه، ومَنْ افترى على غيره يلزمه - بعد طلب براءة الذمة من الشخص المفترى عليه - كشف حقيقة الافتراء أمام كلِّ مَنْ حصل الكذب والافتراء

أمامه، نعم يستثنى من ذلك ما إذا رضي صاحب الحق بالتنازل عن شيء من ذلك. فإن لم يتمكن من شيء مما تقدم، كما لو مات صاحب الحق ولم يسترضه مثلاً، أو استغاب شخصاً ولا يعرف إليه سبيلاً ليصل إليه، أو استلذت مصارحته واسترضائه حصول مشكلة أو وقوع فتنة فليكتف بالاستغفار له بالغيب من دون إعلامه، وهذا ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ ظَلَمَ أَحَدًا ففاته، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ لَهُ فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ»^(١). وهكذا مَنْ يساهم في إضلال أحدٍ فيلزمه إعادته إلى سبيل الهداية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً^(٢).

ومن هنا، تتجلى لنا صعوبة التوبة في بعض الأحيان، وأن الحريّ بالمؤمن أن يتوقف ويتأمل ويفكر ملياً في تبعات الذنب قبل أن يُقدم عليه. ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «تَرَكُ الْخَطِيئَةِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ»^(٣)، خصوصاً ونحن نعيش في عصر الإنترنت، فقد يصدر من الشخص كلام ينشره فيؤدّي إلى فتنة أو هتك عرض أو أذية شريجة من الناس، ونحو ذلك ممّا يصعب تلافيه وتدارك ما يسببه كلامه.

الخطوة الرابعة: تعهّد والتزام

وما أن ينتشل الإنسان نفسه من ساحة الغفلة ومستنقع الذنوب إلا وعاد

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ٣٣٤.

(٢) أنظر: الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج ١٦، ص ٥٤.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٥١.

ثانيةً، فهو في حربٍ ضروسٍ، والأعداء محيطون به من كلِّ جانبٍ يترَبَّصون به أن يغفل أو يتقاعس لينقضُّوا عليه:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ مَا سُلِّطُوا	إِلَّا لِأَجْلِ شِقَاوَتِي وَعَنَائِي
إِبْلِيسَ وَالْدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى	كَيْفَ الْخَلَاصُ وَكُلُّهُمْ أَعْدَائِي
إِبْلِيسُ يَسْلِكُ فِي طَرِيقِ مَهَالِكِي	وَالنَّفْسُ تَأْمُرُنِي بِكُلِّ بَلَاءِي
وَأَرَى الْهَوَى تَدْعُو إِلَيْهِ خَوَاطِرِي	فِي ظُلْمَةِ الشُّبُهَاتِ وَالْآرَاءِ
وَزَخَارِفُ الدُّنْيَا تَقُولُ أَمَا تَرَى	حُسْنِي وَفَخْرَ مَلَابِسِي وَبَهَائِي ^(١)

ولهذا فعلى العاقل أن يبقى فطناً وأن لا يَهِنَ ويركنَ إلى توبته فيتوهم أنه حينما تاب من ذنبه قد انتصر وانتهى الأمر، بل هو باقٍ في معرض الأخطار. ولهذا فمن الضروري أن يأخذ التائب الأمر على محمل الجدِّ، وأن يستحضر تلك المخاطر في باله دائماً، وأن لا يغفل أو يتغافل في أمر نفسه، فيركنَ إلى إغواءات الشيطان وتسويلات النفس الأمَّارة بالسوء من حيث يشعر أو لا يشعر.

ومن أنفعِ الأمور في هذا الصَّدَد إلزام النفس بالتزامٍ وتعاهدٍ صريحٍ وواضح، بأن يأخذ من نفسه العَهْدَ والميثاقَ بأن لا يرتكبَ ما يوجبُ سَخَطَ البارِي عز وجل، وأن لا يُقَصِّرَ في الطاعات وما يوجب القُرْبَ منه تعالى^(٢).

(١) العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء: ج ١، ص ١٤٣.

(٢) أنظر: التراقي، محمد مهدي، جامع السعادات: ج ٣، ص ٧٣.

ولأهمية هذا الأمر وخطورة ما يترتب عليه سنوليه اهتماماً خاصاً، ونحاول أن نُعطيه شيئاً من حَقِّه، على أن يكون كلامنا ضمن نقاط مرتبة وواضحة، لتكون منهاجاً يمكن للمؤمن أن يسير في ضوئه في هذا المجال:

١. ينبغي أن يكون للشخص لكلِّ يومٍ التزام وتعاهد، فلا يكفي بإجراء عملية المعاهدة مع النفس مرّةً واحدة، بل يكرر ذلك كلَّ يوم؛ فإنَّ الإنسان يتراخى وينسى مع تقدُّم الأوقات وطول الأمد: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(١)، فليكنْ هذا التكرار تذكيراً وتأكيداً.

٢. ليُحدِّد له ساعةٌ معيّنة تكون موعداً ثابتاً له لتكرار ذلك الالتزام منه، كأن يكون ذلك الموعد هو ما بعد إحدى الصلوات الخمس، فيجلس بعد التعقيبات لأداء هذا الالتزام.

٣. صياغة تعهده بعبارة صريحة وواضحة، كأن يقول - مثلاً -: أتعهد بأن ألتزم هذا اليوم بأداء الواجبات وترك المحرمات، فأتي بالصلوات اليومية في أول أوقاتها وأن أترك التعرض لأيِّ مؤمنٍ بغيبة أو غيرها، أو أن لا أتعرض لأعراض الناس، وأن لا أخرج في منشوراتي وردودي في مواقع التواصل الاجتماعي عن حدود الأدب ومقتضيات اللياقة، أو أن لا أتهور في قيادة السيارة ولا أخالف قواعد السير... وهكذا.

وفائدة ذلك هو التأكيد على المعاني المذكورة فيه بشكل واضح، وتسهيل عملية استذكارها واستحضارها بعد ذلك.

٤. ليجعل التزاماته وتعهداته على مراحل، فليبدأ أولاً على مستوى الواجبات والمحرمات، وليستمر بعض الأيام يؤكد على ذلك مع التأكيد على بعض المستحبات المهمة التي ترتبط بالواجبات كالمبادرة للصلاة في أول وقتها، والإتيان بالتعقيبات كتسبيحة الزهراء عليها السلام، وقراءة دعاء من أدعية التعقيبات، والإتيان بسجدي الشكر بعد الصلاة، هذا في المرحلة الأولى، ثم يضم إلى ذلك التعهد بالإتيان بالمستحبات المهمة وترك المكروهات المهمة، وهكذا.

٥. وعليه استغلال فرصة التفرغ مع النفس والتوجه إلى الله، فيُسَلِّح نفسه بجملة من الأمور التي تكون له حافزاً وعاملاً مساعداً له على انتهاز الجدِّية في تعهداته، فيستحضر بعض القضايا التي تُسهِّم في ذلك:

من قبيل: أن إبقاء الإنسان في الحياة أنا ما هو نعمة عظيمة ومِنَّة من الله عليه، فهي فرصة لا بدَّ من استثمارها، ولنستذكر في مثل هذه المقامات قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾^(١)، وليعتبر أحداً أنه قد مات فعلاً، وتوسل إلى الله بأن يُرجعه إلى الحياة، وأن الله سبحانه لم يردَّ طلبه هذا بقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ

هُوَ قَائِلُهَا ﴿﴾. بل أرجعه إلى الحياة فعلاً، فيها أنا حيٌّ أَرْزُقُ وبإمكاني تدارك ما فاتني وإصلاح ما لم أتداركه سابقاً، فأَيُّ نعمةٍ هذه؟ وأيُّ شُكْرِ لله يلزم أن يكون مِنِّي؟!

ومن قبيل: استحضار معنى أَنَّ «الدُّنيا ساعة فاجعلها طاعة»^(١). والعامل إذا تأمَّل قليلاً في الدُّنيا وأحوالها وما جَنَاهُ منها في عُمُرِهِ يجدُّ هذا المعنى حاضراً في وجدانه بشكل واضح، فكلُّ تلك السنين التي عشناها بأفراحها وأتراحها - وجميع تلك الأحداث التي أَسْعَدَنَا بَعْضُهَا وآلَمْنَا بَعْضُهَا الآخَر - لا تجد منها سوى الذكريات التي تمرُّ على أذهاننا، كشريط الأفلام مجرد مجموعة صور متعاقبة لا غير، نعم لتلك الأحداث آثار ونتائج قد تحقَّقت ولا زالت قائمة فينا، هذا شيء لا يمكن إنكاره، ولكنَّ نتحدث عن إدراكنا لما نواجهه، والذي هو محلُّ ابتلائنا الفعلي، فمثلاً على مستوى الحاجة إلى الطعام والشراب والملبس ونحو ذلك، صحيح أنَّنا استعملنا الكثير من ذلك في الفترة الماضية من أعمارنا، وأنَّ أثر ذلك من قوَّة في البدن ونحوها باقٍ إلى الآن، ولكن ما نحن مبتلونَ به واقعاً هو ما نحتاجه الآن، فحاجتنا له الآن هي التي تضغط علينا وربَّما دفعتنا إلى استحصال ما نحتاجه من أي طريق كان ولو بواسطة ما هو حرام، وهكذا بلحاظ الغريزة الجنسية، فما هو محلُّ ابتلائنا منها هو ما نعيشه الآن، فليكنَّ جُلَّ اهتمامنا على ساعتنا التي نحن فيها، وهل يصعبُ على

(١) حديث منسوب للنبي ﷺ. أنظر: مصباح الشريعة المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام: ص ٢٢.

الإنسان أن يصبر ويتحمّل عبور ساعته هذه من دون أن ينخرط في الحرام؟! وهكذا بلحاظ سائر الأمور الأخرى ممّا نُبتلى به. وهذه النظرة إلى الأمور تنفع كثيراً في ترويض النَّفس وإقناعها، فالإنسان إذا قال لنفسه: عليك أن تتحمّل ضغوط احتياجك لسدّ الغريزة الجنسية مثلاً طيلة عُمرِكَ البالغ عُقوداً من الزمن. قد لا يصدّق نفسه بأنّه سيتحمّل ذلك وبالتالي فلا يكون عنده العزم بالالتزام بما يعاهد نفسه عليه من البداية، بينما لو استحضّر هذه النظرة أمام ناظره من البداية فإنّه سيجد أنّ الأمر مختلفٌ، وأنّه من الممكن أن يعبر مواطن الابتلاء بسلام وأمان.

وهذه النظرة تُعبر عن الواقع، وليست هي مجرد طريقة إقناعية نحاول أن نلتفّ بها على أنفسنا، كلا بل الوجدان يُثبتها بشكل واضح، ولكنّ الشيطان قد يخدعنا ويجعلنا ننظر بالنظرة الأخرى وأنّ العُمُر مليءٌ بالحاجات الملحة التي لا يمكنُ لنا مقاومتها طيلة فترات العُمُر الطويلة نسبياً، ممّا يجعل تحقّق العزم على اجتناب المحرمات مثلاً حين معاهدة النفس صعباً أو يكون شكلياً بأنّ يتحقّق بشكل غير مستقر، فيقول الشخص: أنا عازمٌ على ترك النظر المحرّم مثلاً وسألزم نفسي بذلك، ولكنّه لو راجع نفسه بصدق لوجد أنّ ذلك العزم غير جادٍّ وأنّ نفسه تراوغة.

وبالإضافة إلى أنّ هذه النظرة توافق الوجدان فإنّنا نجد لها أثراً في كلمات معادن العصمة والطهارة، حيث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«اضْبُرُوا عَلَى الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ فَمَا مَضَى مِنْهُ فَلَا تَجِدُ لَهُ أَلَمًا وَلَا سُرُورًا، وَمَا لَمْ يَجِبْ فَلَا تَدْرِي مَا هُوَ، وَإِنَّمَا هِيَ سَاعَتُكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا، فَاصْبِرْ فِيهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَاصْبِرْ فِيهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ»^(١).

ومن قبيل: أَنَّ الإنسان في حَدِّ نفسه ضعيفٌ لا يقوى - من دون عَوْنِ اللَّهِ سبحانه وتوفيقه - على تحمُّل الصغائر من الابتلاءات فضلاً عن الشدائد والصعاب منها، فعليه - حينما يريد معاهدة نفسه على الالتزام بحدود شرع الله وما يرضي الخالق تعالى - أَنْ يستحضر هذا المعنى ويجعله نَصَبَ عينيه، وَأَنْ يجعله داعياً للتوكل على الله في كُلِّ شيء، وإيكال أمر نفسه له سبحانه، فيخاطبُ رَبَّهُ في خلوته بعبارات تعبرُ عَمَّا يلتمسه في نفسه من ضعف وهَوَان، فيطلب من الله أَنْ يُعِينَهُ وَأَنْ يَصْرِّحَ بِأَنَّهُ إِنْ أُوكله إلى نفسه طرفة عينٍ لَزَاغٌ عن الحقِّ وشطَطٌ عن الصراط القويم.

وفي كلمات أهل البيت (عليهم السلام) ما يصلح لأن يكون في المقام ذكراً وَوَرِداً يواظب عليه في كُلِّ جلسة معاهدة، من قبيل ما ورد في الصحيفة السجّادية من دعاء الإمام زين العابدين (عليه السلام) عند الشدّة والجهدِ وتَعَسُّرِ الأمور، حيث ورد فيه فقرات تناسب المقام من قبيل قوله (عليه السلام): «اللَّهُمَّ لَا طَاقَةَ لِي بِالْجُهِدِ، وَلَا صَبْرَ لِي عَلَى الْبَلَاءِ، وَلَا قُوَّةَ لِي عَلَى الْفَقْرِ، فَلَا تَحْظُرْ عَلَيَّ رِزْقِي، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٥٤.

خَلْقِكَ، بَلْ تَفَرَّدَ بِحَاجَتِي، وَتَوَلَّ كِفَاتِي، وَانْظُرْ إِلَيَّ وَانْظُرْ لِي فِي جَمِيعِ أُمُورِي، فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي عَجَزْتُ عَنْهَا وَلَمْ أَقُمْ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهَا، وَإِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى خَلْقِكَ تَجْهَمُونِي»^(١).

ولكن هذا لا يمنع من إبداء الحاجة إلى الله في كل أمورنا، صغائرها وكبائرها في كل يوم، بل وفي كل وقت بتعابير ارتجالية تُعبّر عمّا في داخلنا بشفافية وعفوية.

الخطوة الخامسة: مراقبة النفس

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، وقال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٣)، أي: مهملاً لا يُكَلَّف ولا يُحاسب أو يُعَذَّب^(٤). فتبوت الحساب بعد الموت ممّا لا ريب فيه، وهو من أوليات ما أنذر به الأنبياء والرسل والأولياء، ولو لم يكن إلا الموت - وهو مما لا سبيل لأحد حتّى لو كان مُلحداً إلى إنكاره - لكان كافياً لردع الإنسان عن الانغماس في طول الأمل والغفلة عن عواقب الأمور، فكيف بنا ونحن نؤمنُ بيقين بأنّ الموت مجرد بداية لعالم

(١) الصحيفة السجادية: ص ١٠٧.

(٢) الحشر: آية ١٨.

(٣) القيامة: آية ٣٦.

(٤) أنظر: الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين: ج ١، ص ٢١٥.

جديد لا مجال للتدارك فيه «أي الأحوال أتذكر وأيتها أنسى! ولو لم يكن إلا الموت لكفى! كيف وما بعد الموت أعظم وأدهى»^(١).

ولذا فعلى العاقل أن يردع نفسه بتذكر الموت وما بعده، فإنّ لهذا فوائد عظيمة؛ ولذا فقد وردت في فضل ذلك روايات كثيرة، فمنه ما رواه أبو عبيدة الحذاء عن الباقر عليه السلام قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «حدّثني بما أنتفع به. فقال: يا أبا عبيدة، أكثر ذكر الموت، فإنّه لم يُكثر إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا»^(٢).

ولو تأمل الإنسان في حاله قليلاً لوجد نفسه في سباق مع تقادم الأيام، فكلّ يوم ينقضي عنه يعني أنّه اقترب من أجله أكثر، ولو لاحظ يومه الذي هو فيه لوجده يُسرّع صباحه إلى ظهيرة، ثمّ تُعاجل ظهيرة اللقاء بمساءه، وهكذا ما هي إلا سويغات ويصبح يومنا أمس، ويكون حاضرنا ماضياً، وهكذا دواليك دواليك!!

والإنسان عادةً مشغولٌ بتدبير أمور معاشه أو ترتيب أحواله، فإنّ لم ينتشل نفسه من سلسلة المشاغل التي قد لا تنتهي والالتفات إلى نفسه وتنظيم أموره على الصعيد الشخصي، ولا سيما شؤون دينه وعلاقته ببارئه جلّ وعلا لا تنتهي به الأمر إلى الضياع والندم، بعدما لا ينفع الندم لفوات الأوان وعدم إمكان التدارك. فما فائدة الندم حينما يجد الشخص نفسه قد أتلف عمره في أمور تافهة وغير مهمة فيجد أنّ ما فاتته كثير وما بقي له قليل.

(١) العبارة فقرة من دعاء الحزين. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ص ١٦٣.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٣١.

ومن الغريب أننا في كل وقت وجيل من البشر نجد نماذج كثيرة لأشخاص لم يستغلوا أعمارهم كما ينبغي، فأضاعوا أعز ما يملكه الإنسان - أعني: العمر - بالاهتمام بأمور جانبية لا ثمرة مهمة وراءها، كالاهتمام المتزايد والمتجاوز للحدود الاعتيادية بمتابعة الأعمال الفنية والنشاطات الرياضية، أو قضاء جلّ الأوقات في جلسات السمر في المقاهي ونحوها، أو إتلاف الوقت كله أو جله بقراءة القصص والروايات، أو يتلف عمره في خدمة تيار أو حزب ذي توجهات عقدية أو سياسية منحرفة أو مشكوك فيها، وحينما تمر به السنون وتظهر عليه علامات الشيخوخة يلتفت إلى وجدانه، فيصيبه الندم على ما فرط، ويحاول التدارك بما يسعه، ولكنه يجد أن قواه قد خارت، ومزاجه قد تبدل، وربما صرح بعضهم بما يتمناه من أنه لو يُعاد به العمر ليستفيد من تجربته في الحياة. وصحيح أن من علامات العاقل هو أن يستفيد من تجاربه، ولكن الأرجح عقلاً والأفضل حظاً هو مَنْ يستفيد من أخطاء غيره. ومن أعظم أفضال الله على العبد أن يجعله ملتفتاً إلى أخطاء غيره ويجعلها عبرة له.

فإذن علينا استغلال كل آن من عُمرنا قبل فوات الأوان، وما أجمل ما قاله إمامنا الصادق عليه السلام في هذا الصدد: «خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِكَ: خُذْ مِنْهَا فِي الصَّحَةِ قَبْلَ السَّقَمِ، وَفِي الْقُوَّةِ قَبْلَ الضَّعْفِ، وَفِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ»^(١).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢ ص ٤٥٥.

وقد شُبِّهَ حال أَحَدِنَا فِي الدُّنْيَا بِالتَّاجِرِ الَّذِي يَشَارِكُ غَيْرَهُ، فِرَاسُ الْمَالِ هُوَ الْعُمُرُ، وَرَبِحُنَا فِيهَا هُوَ تَحْصِيلُ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَخَسِرَانَا فِيهَا هُوَ كُلُّ مَا يُؤَدِّي بِنَا إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ فِي النَّارِ مِنْ مَعَاصِي وَسَيِّئَاتٍ، وَشَرِيكُنَا فِي تِلْكَ التَّجَارَةِ هِيَ النَّفْسُ، حَيْثُ نَسْتَعِينُ بِهَا فِي هَذِهِ التَّجَارَةِ^(١).

وَيَحْسُنُ بِنَا هُنَا أَنْ نَقْتَبِسَ شَيْئًا مِنْ فَقَرَاتِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى مِضَامِينَ نَافِعَةٍ مِمَّا لَهُ صَلَةٌ بِالْمَقَامِ، فَقَدْ وَرَدَ فِيهَا عِدَّةُ فَقَرَاتٍ قِيَمَةٍ مُرْتَبِطَةٍ بِمَحَلِّ كَلَامِنَا، مِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصَحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغَنَّاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفِرَاغَكَ قَبْلَ شِغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»، وَ«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفَ بِأَمْلِكَ، فَإِنَّكَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِمَا بَعْدَهُ» وَ«يَا أَبَا ذَرٍّ، كَمْ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ وَمُنْتَظَرٌ غَدًا لَا يَبْلُغُهُ»، وَ«يَا أَبَا ذَرٍّ، كُنْ عَلَى عَمْرِكَ أَشَحَّ مِنْكَ عَلَى دِرْهِمِكَ وَدِينَارِكَ»، وَ«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ الْكَيْسَ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزَ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ وَهَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ الْأَمَانِي»، وَ«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ لِلْقَلْبِ وَالبَدَنِ، فَإِنَّ اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ يَسْأَلُ أَهْلَ الدُّنْيَا عَمَّا نَعْمُوا فِي حَلَالِهَا، فَكَيْفَ بِمَا نَعْمُوا فِي حَرَامِهَا!»^(٢).

(١) النراقى، محمد مهدي، جامع السعادات: ج ٣، ص ٧٣.

(٢) الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٥٢٥.

ولهذا كله فيُفْتَرَضُ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ مِرَاقَبَةِ نَفْسِهِ وَمَحَاسِبَتِهَا كَمَا أَنَّ التَّاجِرَ يَحْرِصُ عَلَى مِرَاقَبَةِ شَرِيكِهِ وَمَحَاسِبَتِهِ، لِيَحْفَظَ تِجَارَتَهُ مِنَ الْخُسَارَا، بَلِ الْأَمْرُ فِي تِجَارَتِنَا الْمَفْتَرَضَةِ أَهَمُّ وَالْحَالُ فِيهِ أَخْطَرُ، فَرَأْسُ الْمَالِ فِيهَا الْعُمُرُ وَهُوَ لَا يُمْكِنُ تَعْوِضُهُ وَتَدَارِكُ خُسَارَتَهُ، وَالْفَوْزُ فِيهَا هُوَ الْخُلُودُ فِي النِّعَمِ، وَالْخُسَارَا فِيهَا هِيَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ وَالْعَذَابِ الْمَقِيمِ، وَلِنَأْخُذِ الْأَمْرَ عَلَى مُحْمَلِ الْجَدِّ، وَلَا نَتَّكِلْ عَلَى أَمَانِي النَّفْسِ وَخَدْعِ الشَّيْطَانِ، وَنَعْتَزُّ بِشِبَابِنَا الَّذِي لَا يَدُومُ أَوْ بِقَوَّتِنَا الَّتِي سَتَنْضُبُ، أَوْ بِأَنَّ لَنَا غَدًا فَرَصَةً فَتَتَوَبَّ، وَمَا أَدْرَانَا أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَسْبِقُنَا أَوْ أَنَّ مَكْرَ اللَّهِ لَا يَسْلُبُنَا التَّوْفِيقَ لِلتَّوْبَةِ، بَلِ لَا بَدِيلَ عَنِ الْمُبَادَرَةِ بِمِرَاقَبَةِ النَّفْسِ فِي كُلِّ أَفْعَالِنَا وَتَرَوَكُنَا، الصَّغِيرِ مِنْهَا وَالْكَبِيرِ، وَإِلَّا فَالنتيجة الحتمية التي سنصل إليها هي العَفْلَةُ والاندراج إلى هَوَى النَّفْسِ والانصياع إلى إِمْلَاءِ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ.

وَلَا تَكُونِ مِرَاقَبَةُ أَحَدِنَا لِنَفْسِهِ مُثْمِرَةً حَتَّى يَسْتَحْضَرَ مَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِنَا وَسُلُوكِيَاتِنَا حَتَّى الْخَوَاطِرَ وَالْأَفْكَارَ، وَلِيَكُنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(١) شعاراً له؛ فَإِنَّ اسْتِحْضَارَ ذَلِكَ - أَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يِرَاقِبُنَا فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ - يَكُونُ دَاعِياً إِلَى مِرَاقَبَةِ أَنْفُسِنَا بِجَدِيدَةٍ أَكْثَرَ.

ويُحكى أَنَّ زُلَيْخَا حينما خَلَّتْ بِيُوسُفَ عليه السلام وهَمَّتْ به كان في مكان الخلوة صنم دفعها الحياء إلى أَنْ تستره بغطاء؛ كي لا يرى فعلتها التي عزمَتْ عليها، فقال لها يوسُفُ عليه السلام: مالكِ أَتستحينَ من مراقبةِ جمادٍ، ولا أَستحيي من مراقبةِ الملكِ الجَبَّارِ؟! ^(١)

ويوصي إمامنا جعفر الصادق عليه السلام بعض أصحابه - وهو إسحاق بن عمار - فيقول له: «يا إسحاق، خَفِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، فَإِنْ كُنْتَ تَرَى ^(٢) أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاكَ ثُمَّ بَرَزْتَ لَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْوَنِ النَّاظِرِينَ عَلَيْكَ» ^(٣).

وروي أَنَّ رجلاً جاء إلى الإمام عليه السلام وقال له: أَنَا رَجُلٌ عَاصٍ وَلَا أَصْبِرُ عن المَعْصِيَةِ فَعِظْنِي بِمَوْعِظَةٍ، فقال عليه السلام: «أَفْعَلْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ، فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا تَأْكُلْ رِزْقَ اللَّهِ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ، والثاني: أَخْرِجْ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ، والثالث: اطْلُبْ مَوْضِعاً لَا يَرَاكَ اللَّهُ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ، والرابع: إِذَا جَاءَ مَلِكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ،

(١) أنظر: الحمداي، ورام بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام): ج ١،

ص ٢٣٦.

(٢) أي: تعتقد.

(٣) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٧.

والخامس: إِذَا أَدْخَلَكَ مَالُكَ^(١) فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ^(٢)،
والفقرة الثالثة هي ما نعينه بالمراقبة، ولو أننا جعلنا مراقبة الله تعالى لنا
كمراقبة الناس لما صدرَ مِنَّا كثيرٌ من الأفعال المباحة فضلاً عن ارتكاب
المحرمات.

الخطوة السادسة: محاسبة النفس

وأخيراً ينبغي أن يكون للمؤمن وقت لمحاسبة نفسه عما ارتكبه وجنّاه في
يومه، فيلاحظ تصرفاته ويعرضها على ميزان الشريعة، فإن كانت موافقةً
للحد الأدنى ممّا هو مطلوب أو سائغ حمد الله تعالى على توفيقه، وحثّ نفسه
على تحسينه وإتمام ما فيه من خلل غير قادح بصحته مثلاً، وإن وجد إخلالاً في
ذلك أكّد على معاتبة نفسه وأخذ العهد على تحسين وضعه. وليختار وقتاً
محدّداً لذلك، كأن يكون ذلك في آخر يومه قبل أن يخلد للنوم، أو بعد
صلاة العشاء مثلاً. وقد ورد عن أئمتنا الأطهار^(عليهم السلام) أنّه: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ

(١) وهو خازن النار.

(٢) الشعيري، محمد بن محمد، جامع الأخبار: ١٣٠. وقد نقلها الشعيري عن الإمام علي بن
الحسين^(عليه السلام)، إلا أنّ العلامة المجلسي^(رحمته الله) نقلها في البحار عن جامع الأخبار ونسبها إلى الإمام
الحسين بن علي^(عليه السلام)، أنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ١٢٦. وهذا يعني
وجود اشتباه في نقل العلامة المجلسي^(رحمته الله) أو وجود نسخة ثانية من جامع الأخبار وصلته ولم
نطلع عليها.

يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَإِنْ عَمِلَ حَسَنًا اسْتَرَادَ اللَّهُ^(١) وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئًا اسْتَغْفَرَ اللَّهُ مِنْهُ وَتَابَ إِلَيْهِ^(٢).

ومن محاسن الحكم النّافعة في هذا المجال ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «مَنْ اعْتَدَلَ يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»^(٣)، أي: إنّ الذي يكون حاله في هذا اليوم كحاله أمسٍ هو خاسر، وذلك لأنّه أتلف وقتاً من عُمره من دون أن يستغله في الاستفادة وتطوير نفسه، فيكون حاله كالتاجر الذي يُتلف بعض أمواله من دون أن يربح شيئاً؛ فإنّ الوقت هو رأس مال الإنسان.

(١) أي: طلب من الله أن يزيده من فضله.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٥٢.

(٣) الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه: ج ٤، ص ٣٨١.



الفصل الثالث

عقبات في طريق الإنابة إلى الله

الفصل الثالث : عقبات في طريق الإنابة إلى الله

وهناك عقبات تقع في طريق عودة المؤمن إلى طريق الصلاح وإنابته لله سبحانه وتعالى، سنذكر أهمّها:

العقبة الأولى : الغفلة

تُعَدُّ الغفلة من أخطر الأمراض المعنوية التي قد يتعرَّض لها الإنسان؛ لأنّها إذا أصيب بها شخص فقد تستولي عليه فلا يلتفت إلى حاله ولا يستمع إلى تحذير أو ينتفع بموعظة وإرشاد، ويكون حاله كالجاهل بالجهل المركّب، وهو الذي لا يعلم ولا يدري بأنّه لا يعلم، بل يُحَيِّلُ له بأنّه عالم، كأولئك الذين كانوا يعتقدون أنّ الأرض مسطّحة استناداً لمعطيات باطلة، ومنها الاعتقاد على ما يظهر لمن مدّ بصره من استواء لسطحها، فهم كانوا على يقينٍ من اعتقادهم المذكور، لدرجة جعلتهم يضعون مَنْ يحاول إثبات عكس ذلك - وأنّ الأرض كروية - في موضع المتّهم بجريمة نكراء، فأدّى ذلك إلى الحكم على بعضهم بالإعدام، كما حصل للعالم والفيلسوف جوردانو برونو^(١)، وأُجبر بعضهم الآخر على إعلان

(١) جوردانو برونو المعروف أيضاً بـ نولانو أو برونو دي نولا (١٥٤٨م - ١٦٠٠م). وهو فيلسوف إيطالي شهير. كان راهباً أيضاً في البداية، ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة فيما بعد. وقد اعتنق نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض، على الرغم من أنها كانت

تراجعه عمّا ادعاه من أنّ الأرض كروية، كما فعل العالم الإيطالي جاليليو^(١)، ولكن بعدما تطور العلم اتضح خطأ ذلك الاعتقاد بشكل جازم، وأصبحت رؤية الأرض كرة تسبح في الفضاء ممكنة، فمثّل هذا الشخص - الذي هو جاهل ولا يدري بأنّه جاهل - كيف يُمكننا إقناعه بأنّ الواقع ليس كما يعتقد وأنّه مُحطّئ في اعتقاده؟! إنّ هذا لا يحصل إلا إذا عرف أنّه جاهل وليس عالماً، فآنذاك يمكننا إرشاده وتعليمه، ولكن هذا لن يتحقّق بسهولة كما هو واضح. وهكذا الحال مع الغافل؛ فإنّه مع غفلته يكون من الصعب إفهامه أيّ مسألة كانت؛ لأنّ فهمه لها لا يتحقق من دون التفاته لتلك القضية، ولعلّه إلى هذه



محرمة من قبل القساوسة آنذاك، وذهب إلى أبعد منها آنذاك بوضعه فرضية أن النظام الشمسي هو واحد من مجموعة نظم تغطى الكون في صورة نجوم، وذهب إلى لانهائية الكون.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%88%D8%B1%D8%A%D8%A7%D9%86%D9%88_%D8%A8%D8%B1%D9%88%D9%86%D9%88

(١) جاليليو جاليلي (١٥٦٤م - ١٦٤٢م) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، نشر نظرية كوبرنيكوس - القائمة على أنّ الأرض كروية وأنها ليست مركز الكون - ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%BA%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%84%D9%8A%D9%88_%D8%BA%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%84%D9%8A

الحقيقة يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: «سَكْرُ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورُ أَبْعَدُ إِفَاقَةً مِنْ سَكْرِ الْخَمُورِ»^(١).

كما وصف الله تعالى حال الناس - والمقصود بكل تأكيد أكثرهم - بقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٢)، فالعمر يسير بهم نحو آجالهم المحتومة وهم غافلون ساهون عن التفكير في ذلك، وعن الهدى والعمل بما يقتضيه معرضون عن الآخرة بانشغالهم بالدنيا، وإذا جاءهم شيء جديد من التنزيل وآيات الكتاب العزيز استمروا على الجهل الذي هم فيه^(٣). كل ذلك سببه الغفلة وعدم الالتفات إلى الواقع وعدم انتفاعهم بالنصح والتحذير.

وفي نفس هذا السياق يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤)، فالغافلون مسلحون - كغيرهم - بأدوات المعرفة من عقول وأعين وآذان، ولكنهم بسبب غفلتهم صاروا كالدابة التي لا هم لها غير علفها فلا هدف لهم في الحياة غير الالتذاذ بملذات الدنيا، بل هم أسوأ حالاً من الدواب؛ لأنهم

(١) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٢٦٦.

(٢) الأنبياء: آية ١ - ٢.

(٣) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن: ج ٧، ص ٢٢٨.

(٤) الأعراف: آية ١٧٩.

يملكون شيئاً لا تملكه الدواب وهو العقل، ولكنهم أهملوه بالغفلة والانشغال بالملذات.

وما يزيد الأمر خطورةً هو أنَّ الإنسان بطبيعته ميَّالٌ للركون إلى الراحة، حُبُّ اللذات بالشهوات، ونفسه تنوق إلى الكسل، وعدم تعكير أجواء السكون بحركة التفكير والاجتهاد بما يوجهه من أعمال، ولعلَّه ينساق مع ما تُمليه طبيعته فيدخل في ساحة الغفلة بلا شعور منه، وهو لا يلتفت إلى ذلك، ومن هنا فقد يفرض تساؤلٌ نفسه علينا، وهو: إنَّه إذا كان من الممكن أن يقع الإنسان في الغفلة لا شعورياً، والغفلة - كما نعرف - تعني عدم الالتفات الذي يؤدِّي إلى عدم التفاعل مع أيِّ توجيهات وإرشادات، فهل يمكننا بالتالي القول: بأنَّ الغفلة لا علاج لها؛ لأنَّ العلاج يكون بالانتباه والالتفات، ومع الغفلة لا انتباه ولا التفات؟

والجواب الصحيح هو أنَّه يمكن تلافي أو معالجة الغفلة من ناحيتين: الناحية الأولى: إنَّه يمكن أن يتوجَّه العلاج إلى الأسباب التي تؤدِّي إلى الغفلة، لكي لا يقع الإنسان فيها، فالذي يُلقي بنفسه من أعلى بناية ليس من المعقول أن يوجَّه له خطاب وهو يهوي إلى أسفل ويقال له: لا ترتطم بالأرض؛ لعدم تمكنه من امتثال ذلك بأن يوقف سقوطه الذي يؤدي إلى ارتطامه بالأرض فهذا أمر قد خرج عن قدرته وصار نتيجةً حتميةً للهوي من أعلى، ولكن من الممكن أن يوجَّه له خطاب قبل أن يُلقي بنفسه من أعلى البناية ويقال له: لا تُلقِ بنفسك من أعلى. وهكذا في موردنا فإنَّه من الممكن

أَنْ يُوجَّهَ الاهتمام إلى الأسباب التي تؤدي إلى الغفلة فيقطع الطريق الذي يوصل إليها.

الناحية الثانية: إِنَّ ما ذُكر من إشكال يفترض أَنَّ الغفلة إذا كان حصولها لا شعورياً فلا يمكن علاجها، إِنَّمَا يتمُّ في بعض حالات الغفلة دون بعضها الآخر، فهو يتمُّ في حالة الغفلة التامة، والتي قد يصل إليها الإنسان بعد التماهي وطول الأمد، والتي تكون طريقةً ومسلكاً للبعض كما ربَّما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَفِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١)، ولا يتمُّ في حالات الغفلة المعتادة التي يقع فيها أغلبنا، والتي تكون نتيجة الاغترار بزخارف الدنيا ومشاغلتها، أو يقع فيها بسبب التزامه بما يعمله وتوفير ما يحتاجه هو وعائلته ونحو ذلك، والتي يلتفت الإنسان معها إلى حاله بمجرد تنبيهه؛ ولهذا نجدُ أَنَّ الشارع ينهانا عن الدخول في الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢).

سُبُل علاج الغفلة

وعلى آية حال، فهناك بعض الأمور التي يمكن عدُّها أسباباً لعدم الوقوع في الغفلة عادةً، وهي:

(١) يونس: آية ٧-٨.

(٢) الأعراف: آية ٢٠٥.

١. المداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى، والإكثار من قراءة القرآن والدعاء والتضرُّع إلى الله سبحانه. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(١)، فأمر تعالى بالذكر وقرن ذلك بالنهي عن الغفلة، كما يقال لمن يعاني من الخمول: مارس الرياضة ولا تكن كسولاً. فنفهم من ذلك أن هناك ملازمة بين ترك الرياضة وتحقيق الخمول، وهكذا في المقام، فيستفاد من الآية الشريفة أن هناك اقتراناً وملازمة بين ترك الذكر في مختلف الأوقات وبين حصول الغفلة. وقد نُقل عن السيد المسيح عليه السلام أنه كان يقول: «لا تُكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يُكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون»^(٢). وهذا شيء ملموس، فإنَّ الإنسان حينما يكون تركيزه مسلطاً على جهةٍ يشغل بها عن كلِّ ما عداها؛ ولهذا نجد لأصحاب الاختصاصات ذاكرةً قويةً وتركيزاً عالياً في مجال اختصاصهم قد يكون على حساب ذاكرتهم وتركيزهم في غير ذلك المجال، فإذا كثر كلام الشخص في أمور الدنيا وتفصيلها كان اهتمامه متزايداً في هذا الجانب، فيبتعد في نفس الوقت عن الأمور المعنوية وعن الفطرة السليمة.

(١) الأعراف: آية ٢٠٥.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١١٤.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «بَدَوا مِ ذِكْرِ اللَّهِ تَجَابُ الغفلة»^(١)، أي: تَنْجَلِي وتَذْهَبُ^(٢)، فالذكرُ ضدُّ الغفلة، وإذا تحقق الشيء يتنفي ضده أكيداً.

والذكر تارة يكون باللفظ وأخرى يكون بالقلب، وأفضلهما ما اجتماعا فيه، بأن يكون جارياً على اللسان، ونابعاً من القلب، وأكمله أن يكون مع التفكُّر؛ فإذا اجتمعت الثلاثة كان العبد داخلياً في ساحة الطاعة، لسانه ذاكر وقلبه خاشع.

ثم إنَّ فائدة الذكر في رفع الغفلة تكون بحسب مستوى الذكر، وأفضل مراتبه هو ما كان مع التفكُّر في صفات الله تعالى وعجائب خلقه، وجميل فعله بنا؛ فإنَّ لذلك أثراً مباشراً على الإنسان وسلوكه، ويجعله مرتبطاً بالله سبحانه، فحينما يستحضر أنَّ الله عالم ومحيط بكلِّ شيء - وأنَّه أقرب إليه من حبل الوريد ويعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور - فإنَّه سيعيش حالة الشعور بمراقبة الله له وأنَّه سبحانه حاضر في كلِّ مكان وأي وقت، وفي كلِّ حال سيغيِّر سلوكه قطعاً، ولن يكون للغفلة إلى قلبه سبيل. وحينما يستحضر ما أنعم الله به علينا من نعم - وما شملنا به من ألطاف - سيشعر بالامتنان في قلبه وسيلهج لسانه بالشكر مثلاً.

(١) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٨٩.

(٢) يقال: انجابت السحابة، أي: انكشفت وانجلت. أنظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد،

٢. الإكثار من تذكُّر الموت، ذلك الواقع المفروض علينا بشكلٍ جازم لا يقبل التشكيك، فكلُّ ما يفكر به الإنسان من الأمور المستقبلية يحتمل فيه أن يسبقه الموت فلا يحصل منها شيء، إلا الموت فهو حاصل لا محالة، وسابق غير مسبوق، فلو فكَّر الإنسان بوجبة الطعام المُقبلة لاحتمل أن يموت قبل حلول وقتها، ولو خطر في باله موعد ذهابه إلى محلِّ عمله لجاء احتمال أن يموت قبل ذلك، وهكذا الحال مع جميع الأمور المستقبلية. وصحيح أن الموت أيضاً نحتمل أن يسبقه تناولنا وجبة الطعام أو ذهابنا لمحلِّ العمل ونحو ذلك، فربَّما تأجل حلوله وahan وقت تلك الأمور قبله، ولكن هناك فارق بين الأمرين فالموت إذا تحقق لم يُعطِ مجالاً لحصول شيءٍ من تلك الأمور الأخرى، بخلاف غيره فلو لم يمت الإنسان وتناول طعامه وذهب إلى محلِّ عمله مثلاً، فإنَّ الموت يبقى يُلاحقه وسيتحقق لاحقاً بكلِّ تأكيد. ولأجل هذه الحقيقة وصِف بأنه هادم اللذات^(١).

والعجبُ كلُّ العجبِ من أنَّنا بالرغم من معرفتنا هذه الحقيقة إلا أنَّنا نفكِّر بكلِّ شيءٍ إلا الموتَ، فهل هي مصادفة أن تكون المعادلة معكوسةً تماماً، فنهتمُّ بما لا يقين لنا بتحقيقه، ونتغافل عما هو حاصلٌ يقيناً؟ فترى أحدنا يتهيأ لسفره قبل مواعده بأيام، ويؤقَّت المنبّه ليستيقظ ليذهب إلى محلِّ عمله، ويشترى الطعام للوجبة المقبلة، وهو ناسٍ أو متناسٍ لحقيقة أن الموت قد

(١) أنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص ٢٧.

يسلبه من ذلك كله قبل كل شيء. بكل تأكيد هذا ليس مصادفةً، بل هو نتيجة لخداع الشيطان لنا ووسوسة النفس التي تتعلق بالدنيا وتُحبُّ البقاء فيها، وتميل إلى الكسل والتهرُّب من المسؤولية، فمع تذكُّر الموت والتصديق به يحكم العقل بلزوم أن يَسْتَتَبِعَهُ شعورٌ بالمسؤولية والاستعداد له بما يناسبه من عملٍ وإتعاظٍ للنفس. ولهذا تجدُ أن هناك تأكيداً على مسألة الإكثار من تذكُّر الموت لما لذلك من أثرٍ عظيم على الإنسان، وما يُنتجه من ارتفاعٍ للغفلة المانعة من تهذيب النفس وإصلاحها.

وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ذِكْرُ الْمَوْتِ يُمِيتُ الشَّهَوَاتِ فِي النَّفْسِ، وَيَقْطَعُ مَنَابِتِ الْغَفْلَةِ، وَيَقْوِي النَّفْسَ بِمَوَاعِدِ اللَّهِ، وَيُرْقِّطُ الطَّبْعَ، وَيَكْسِرُ أَعْلَامَ الْهَوَى، وَيُطْفِئُ نَارَ الْحُرْصِ، وَيَحَقِّرُ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَعْنَى مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَكُرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ...»^(١).

٣. مخالطة العلماء وأهل العلم عموماً ومواظبة ارتياد مجالس العلم والوعظ. فإنَّ لذلك أثراً عظيماً في الابتعاد عن الغفلة، ولا سيما إذا ما كانت المجالس للتعقُّف في الدين أو ذكر أهل البيت عليه السلام، وروي عن الصادق عليه السلام: «تَلَاقُوا وَتَحَادَّثُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ بِالْحَدِيثِ تَجَلَّى الْقُلُوبُ الرَّائِنَةُ وَبِالْحَدِيثِ إِحْيَاءُ أَمْرِنَا فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا»^(٢).

(١) مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام: ص ١٧١.

(٢) الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللالي: ج ٤، ص ٦٧.

العقبة الثانية: حُبُّ الأنا

فُطر الإنسان على حُبِّ نفسه؛ ولذلك فهو يحاول أن يحفظ نفسه بكلِّ ما أوتي من قوَّة، ويسعى إلى تحصيل صفات الكمال والرقِّي في مراتبه، ويهدف إلى أن يكون أفضل من غيره، فتجد هذه الغريزة هي ما يدفعه إلى الاهتمام بنفسه والسعي لتوفير ما يقويه من طعام وشراب، وما يستره من لباس، وما يؤويه من بيت، بل وهي التي تجعله مهتماً بزوجته وأبنائه وسائر أرحامه وأصدقائه، وتُبقِّيه دائماً يكدح في سبيل تحصيل كلِّ ما هو أفضل.

وهذه الخصلة محبِّبة وضرورية كما هو واضح، ويصطلح عليها أصحاب الاختصاص في فنِّ تطوير الذات بـ(تقدير الذات)^(١)، ويرونها أهمَّ عنصر حاسم في تحقيق النجاح الشخصي، فهو يؤثر على مستوى الأداء في العمل، وعلى الطريقة التي نتفاعل بها مع الناس، وعلى مستوى صحتنا النفسية. ولا يجانب الصواب مَنْ يقول: إنَّ تقدير الذات هو مفتاح النجاح^(٢).

هذا ولكنَّ قد يأخذ حُبُّ الذات منحى متطرفاً فيصِلُ الأمر إلى أن لا يرى الشخص اعتباراً لأيِّ شيءٍ سواه، فلا يفعل شيئاً إلا إذا كان يجده في صالحه، بل إذا شَخَّص أن هذا الفعل مثلاً يصبُّ في مصلحته فهو يُقدِّم عليه

(١) ويعرَّف بعضهم - كجوبير بروكنر - تقدير الذات بأنَّه: «سمة تُشير إلى درجة محبة أو كراهية المرء لذاته». أنظر: كتاب تعزيز تقدير الذات تأليف رانجيت سينج ماهي وروبرت دبلو . ريزنر: ص ٢.

(٢) رانجيت سينج ماهي وروبرت دبلو . ريزنر، تعزيز تقدير الذات: ص ٧.

ولا اعتبار لأي شيء آخر عنده، فلا يهتم لما إذا كان في ذلك الفعل ظلمٌ لغيره أو تجاوزٌ لحدود الدين أو الأخلاق والأعراف الراسخة، أو يمنع غيره عما هو في أمس الحاجة إليه، مهما كانت الاعتبارات، ما دام لا يرى نفعاً مادياً أو معنوياً يعود إليه. وباختصار فهو يختزل الوجود في ذاته، فلا يعي غير نفسه واحتياجاتها، ولا يهتم بما سوى ذاته.

وهذه الصفة مذمومة وتعدُّ من أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من الأمراض المعنوية، وهي المقصودة من قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾^(١)؛ فما دام هو يتابع هوى نفسه فيفعل ما تشتهي ويترك ما تكره فهو بطاعته لهوى نفسه عابداً لها من حيث يدري أو لا يدري، ولهذا فإن رُقِي الإنسان يُقاس في المنظور الإسلامي بملاحظة إفنائه لذاته في خالقه سبحانه وتعالى، فلا يرى الوجود كله إلا مظهراً لقدرته تعالى، ولا يفعل فعلاً لا يرتضيه، بل ولا يُحِبُّ إلا مَنْ أَحَبَّه الله ولا يبغض إلا مَنْ أَبْغَضَهُ، فأولئك هم الموحدون حقاً، والذين يصفهم الإمام الحسين (عليه السلام) في دعائه يوم عرفة حينما قال مخاطباً ربَّ العباد: «أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَزَلْتَ الْأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَجْبَائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى غَيْرِكَ...»^(٢).

(١) الفرقان: آية ٤٣.

(٢) ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، إقبال الأعمال: ص ٣٤٩.

ولذلك؛ فإن المعصومين يرون كل التفاتٍ إلى النفس تقصيراً في حقِّ العبودية للخالق جلَّ وعلا. وعلى هذا المعنى يحمل بعضهم استغفارَ الأنبياء والأئمة والأوصياء المعصومين؛ فهم يرون الالتفات إلى شؤونهم الخاصة كالأكل والشرب والنوم والمخالطة للناس شيئاً لا يتناسب مع مقام العبودية المطلقة لله سبحانه، ولكننا مضطرون إليه، فالاشتغال بمثل ذلك لا يخرج عن كونه حجاباً في عُرْفهم^(١). وهذا ما يمكن أن نلتمس له شواهد في كلماتهم عليهم السلام. ومن باب المثال إليك ما يُخاطب به إمام الساجدين عليه السلام ربَّه في بعض مناجاته حيث يقول: «... فاستغْفِرْكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ رَاحَةٍ بَغَيْرِ أَنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُورٍ بَغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْلٍ بَغَيْرِ طَاعَتِكَ»^(٢). وهذا مختصُّ بهم صلوات الله عليهم، ولا يشملنا كما هو واضح.

وعلى أية حال، فإنَّ الأنانية وحبَّ الأنا بمعناها المذموم له مظاهر بصفاتٍ بذيةٍ ونعوتٍ ذميمة متعددة تكون الأنانية وحبُّ الأنا لها بمثابة الوالدة لأولادها، كالعُجب والكِبَر والحسد والطمع والبخل ونحو ذلك ممَّا هو واقع لا محالة لكلِّ مَنْ أَحَبَّ نفسه وهامَّ في إرضائها وسعى في تحصيل كلِّ ما تشتهيه؛ فإنَّ مَنْ أَحَبَّ نفسه أُعْجِبَ بها، وَمَنْ أُعْجِبَ بنفسه تكبَّرَ على غيره وحسده، وهكذا الذي يُطِيع نفسه ويحاول إرضاءها لا يكون لرغبته حدٌّ، وهكذا.

(١) أنظر: الكجوري، محمد باقر، الخصائص الفاطمية، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٩١، ص ١٥١.

وإذا كان الشخص معجباً بنفسه مُحبّاً لها بتلك الدرجة فقد يصعب عليه الالتفات إلى نفسه وإدراك أنه بحاجة إلى مراجعة مع نفسه، والإنابة إلى بارئه، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً يَرَى كُلَّ مَا فِيهِ جَمِلاً، وَمَنْ عَشَقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ^(١):

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السَّخَطِ تُبْذِي الْمَسَاوِيَا^(٢).
ومن جهةٍ أخرى، فالذي يقع في مرض حُبِّ الأنا تستولي عليه مجموعةٌ من الأمراض التي تكون ملازمةً لذلك كما عرفت، كُلُّ واحد منها يمثل ذراعاً لأخطبوطٍ عملاق سيحتضنه ولا يترك له مجالاً ليتشغل نفسه بسهولة.
وبعبارةٍ أخرى: فَإِنَّهُ إِذَا أَحَبَّ نَفْسَهُ بِالشَّكْلِ الْمَذْكُورِ فَإِنَّهُ سَيَفْتَحُ عَلَى نَفْسِهِ جِهَاتٍ عَدِيدَةً، وَسَيُوسِعُ دَائِرَةً مَا يُجَابِهُهُ مِنْ أَمْرَاضٍ مَعْنَوِيَةٍ فَتَتَعَاظَمُ مُشْكَلَتُهُ وَلَا يَزِدَادُ إِلَّا بُعْداً عَنْ طَرِيقِ الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولهذا كله نجد في الروايات تأكيداً على خطورة هذا المرض - أعني: العُجب - حتى ورد في بعض الأحاديث القدسية أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يُوَاطِبُ عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ وَيُتْعَبُ نَفْسَهُ فِي السَّهْرِ لِلصَّلَاةِ وَالتَّهَجُّدِ، فَيُلْقِي اللَّهُ عَلَيْهِ التُّعَاسَ فِي

(١) هذه العبارة هي لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، أنظر: مهج البلاغة: الخطبة ١٠٩، ص ١٦٠.

ومعنى (أعشى بصره): صَعَفَ بصره أو ذهب، أنظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين: ج ٢، ص ١٨٨. وأيضاً: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ١٥، ص ٥٦.

(٢) هذا البيت هو لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي الكوفي المعروف بالطالبي. أنظر: الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني: ج ١٢، ص ٤٣٤. وأيضاً: الدينوري، ابن قتيبة، عيون الأخبار: ج ٣، ص ١٦.

بعض لياليه ويُيقية على نومه إلى الصباح من أجل أن لا يُصيبه العُجب^(١). فأحبُّ شيءٍ إلى الله المؤمنُ من عباده، وأحبُّ حالٍ له معه هو لقاءه به، وأفضل صور اللقاء هي الصلاة، وأفضل الصلوات بعد الفريضة هو ما كان في جوف الليل^(٢)، ومع ذلك يحرم الله سبحانه المؤمن من هذا الفضل صوتاً له عن أن لا يُصيبه العُجب.

سُبُل علاج حُبِّ الأنا

والإنسان إذا وقع في فخِّ العُجب وحُبِّ الأنا قد يكون علاجه صعباً ويحتاج ذلك إلى جهود مضاعفة، ولهذا ينبغي للعاقل أن يكون ملتفتاً لهذه الحقيقة لكي لا يقع في هذا المستنقع من حيث يدري أو لا يدري، وليقطع الطريق أمام ذلك، وإليك جملة من الأمور التي تُعدُّ طرقاً وقائية أو علاجية لهذه الحالة المرضية الخطيرة:

١- على الإنسان الإكثار من التدبُّر في واقعه وتكرار التفكُّر في ضعفه وعجزه وقلة حيلته، واستحضار هذا المعنى في باله دائماً. وهذا لا يحتاج إلى مزيدٍ من التفكير والتعمق في التأمل، فالإنسان أعرف بنفسه، وعلى بصيرة من ضعفه، وبمجرد أن يلتفت إلى احتياجاته الاعتيادية والمستمرة بشكل دائم - وما

(١) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٠.

(٢) فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أفضل الصلاة بعد صلاة الفريضة الصلاة في جوف

الليل...». ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال: ص ٥٥٤.

يحصل له من قلق وارتباك بمجرد أن يفقد بعض تلك الاحتياجات - يشخص أمامه ضعفه وقلة حيلته.

ولا أعتقد أن هذه الحقيقة تحتاج إلى دليل إثبات غير الرجوع إلى الوجدان؛ ولهذا تجد القرآن يتبع ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(١)، فيصفُ حال المشركين بأنهم حينما يركبون السفينة وتتلعب بها أمواج البحر يرجعون إلى وجدانهم فلا يجدون في أنفسهم غير العجز والاحتياج إلى المعين. وقد أراد تعالى بذلك إلفات أنظارهم إلى هذا الوجدان الحاضر في واقعه والغائب عن أنظارهم. فبدوام تفكير الإنسان في واقعه وما عليه من ضعفٍ وشدة احتياج إلى الله سبحانه بل وإلى سائر الناس تستقر في قناعته صورته الحقيقية ويلتفت إلى أن موجبات العجب بنفسه والافتخار على غيره هي مجرد أوهام لا واقع لها. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نَبَّهَ بِالتَّفَكُّرِ قَلْبَكَ»^(٢). فإذا كان الإنسان لا قدرة له على تدبير أمور نفسه الضرورية لوحده، وإنما هناك من يدبر شؤونه، فتراه يتنفس الهواء وهو منهمك في عمله ومشاغله، بل حتى حينما ينام ويفقد وعيه وإرادته تجده باقٍ يتنفس بلا شعور أو التفاتٍ منه، وتجده غافلاً عن جريان الدم في شرايينه وأوردته، ويأكل الطعام ولا يجري شيء من عملية

(١) العنكبوت: آية ٦٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٤.

هضمه - بعد ابتلاع الطعام - بإرادته، وإذا غلبه سلطان النوم فلا طاقة له لمنازعته، وإذا أخذ منه الجوع أو العطش الشديد مأخذه ولم يجد الطعام أو الشراب أوصله إلى أن يذل نفسه في سبيل الحصول على لقمة أو شربة ماء، وإذا أصابه مرض أقعده وجعله محتاجاً إلى غيره، فما هو الوجه لعجبه بنفسه وتكبره على غيره؟! وما أروع ما أثر عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «ما لابن آدم والفخر؟! أوله نطفة، وآخره جيفة، ولا يرزق نفسه، ولا يدفع حثفه»^(١)، وقوله: «مسكين ابن آدم، مكتوم الأجل، مكنون العليل، محفوظ العمل، تؤله البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقه»^(٢).

٢- ومما ينفع في هذا المجال كثيراً تعويد النفس على الالتجاء إلى الله تعالى في كل كبيرة وصغيرة، مع الإلحاح في طلب العون والتوفيق منه عز وجل في كل أمر ليكون ذلك ملكة له يسير على طبقها بشعور ولا شعور؛ فإن هذه الطريقة تجعله يرجع إلى وجدانه بشكل دائم ومتكرر، فإذا واجهته أي قضية فبالتوجه إلى الله سبحانه سالتفت إلى عجزه وقلة حيلته، فحتى الأمور البسيطة السلسة قد يطرأ معها طارئ بسيط يعرقل سير الأمور فيها، ويجعل

(١) نهج البلاغة: ص ٥٥٥.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٥٠.

ومعنى مكتوم الأجل: أنه غير مطلع على موعد موته، ومعنى كونه مكنون العليل: أنه قد ستر عنه أمراضه، فهو في معرض الأمراض ولكن لا يعلم متى يمرض.

السهل صعباً. وبالجملـة: إنَّ إدراك الإنسان لضعفه وعجزه واستحضاره لهذا المعنى يجعله بعيداً عن حبِّ نفسه وعبادته لها، ويجعله يركن إلى الله سبحانه وتعالى، ويطلب العون منه، فلا يغترَّ فيعجب بنفسه ولا يجد موجباً للتكبر على غيره.

٣- أن يستحضر يقينه بالثواب الأخروي؛ فإنَّ ذلك يجعله يُضحي بالمنافع الدنيوية القريبة التي يمكن أن تعود عليه على حساب الآخرين والتجاوز على حقوقهم مثلاً، وأن يـزهد بالاستئثار بالمناصب العُليا أو التسلُّط على الآخرين من عائلته أو العاملين معه ونحو ذلك، ويجعله مراعيًا لمشاعر وحقوق الآخرين، فلا يُتابع نزوات نفسه ونزوعها نحو التسلُّط والاستئثار بكلِّ ما تطمح إليه وتشتهيه، مهما كانت سُبُل ذلك. وفي الحقيقة فإنَّ الطريقة المذكورة تُعدُّ أسلوباً ترويضياً ومحاولةً لإقناعها بالمنافع الأخروية؛ لأجل أن تكون مستعدةً للتخلي عن المنافع الدنيوية التي قد يلازمها ظلم الغير أو مزاحمتـه.

نعم، الأفضل من ذلك ما لو كان الإنسان في طبيعته زاهداً في التسلُّط على الآخرين، ومستقبحاً للاستئثار بحقوق الآخرين، وكارهاً لمزاحمتهم لأجل كون ذلك ممَّا لا يليقُ بالمؤمن، ويتنافى مع المروءة ومقتضيات العقل، ولكن نحن نتعامل مع واقع حالٍ، وأكثر الناس هم ليسوا بتلك المرتبة من المروءة ورجحان العقل، فلا بأس بالالتفاف على النفس ونزواتها من أجل ترويضها وتهذيبها؛ فإنَّ ذلك غاية سامية قد بُعثَ الأنبياءُ والأولياءُ لأجلها.

٤- أَنْ يَمُرَّ نَفْسَهُ عَلَى نَكَرَانِ الذَّاتِ وَإِنْصَافِ الْآخَرِينَ مِنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُحِبَّ لْغَيْرِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ. وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُمْ عليهم السلام: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١)، و«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَيَكْرَهُ لَهُ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ»^(٢). وَلَنَا فِي أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَإِنَّ لَهُمْ مَثَرًا لَا يُلَامُ مَنْ يَحْرُسُ عَلَى أَنْ يَكْتُبَهَا بِهَاءِ الذَّهَبِ. فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا * فَوَقَّهُمُ اللَّهُ سَرْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾^(٣)، فَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نَزْوِهَا أَنَّ الْحَسَنَيْنِ قَدْ مَرَضَا فَنَذَرَ أَبُوَاهُمَا عليهما السلام وَفَضَّةَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهَا أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِنْ شَافَاهُمَا اللَّهُ، فَمَا أَنَّ شَفِيَا حَتَّى أَصْبَحُوا صَائِمِينَ وَفَاءً بِنَذْرِهِمْ، وَعِنْدَ مَجِيءِ وَقْتِ الْإِفْطَارِ وَضَعُوا طَعَامَهُمْ لِيَتَنَاوَلُوهُ إِذَا بِمَسْكِينٍ يَطْرُقُ الْبَابَ يَسْأَلُهُمْ أَنْ يُطْعَمُوهُ، فَأَعْطَوْهُ فَطُورَهُمْ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ أَصْبَحُوا صَائِمِينَ وَلَمْ يَتَنَاوَلُوا غَيْرَ الْمَاءِ، وَفِي وَقْتِ إِفْطَارِهِمْ تَكَرَّرَتِ الْحِكَايَةُ فَطَرَقَ فَقِيرٌ الْبَابَ طَالِبًا مِنْهُمْ الطَّعَامَ، فَأَعْطَوْهُ طَعَامَهُمْ كَذَلِكَ. وَهَكَذَا تَكَرَّرَ الْأَمْرُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، فَطَرَقَ أَسِيرٌ بَابَ دَارِهِمْ قَائِلًا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ، مَا أَنْصَفْتُمُونَا

(١) العاملي، زين الدين بن علي بن أحمد (الشهيد الثاني)، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد: ص ١٩٠.

(٢) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن: ج ١، ص ٩.

(٣) الإنسان: آية ٨- ١٢.

من أنفسكم، تأسرونا وتقيدوننا ولا تطعمونا، أطعموني؛ فإني أسير محمد، فأعطوه طعامهم أيضاً^(١).

كما ينقل لنا الإمام الصادق عليه السلام عن جده زين العابدين عليه السلام بأنه كان لا يسافر إلا مع رفقة لا يعرفونه، ويشترط عليهم أن يكون ضمن من يخدمهم، وهكذا كان في بعض سفراته، فصادف أن تعرّف عليه أحدهم، فكشف أمره للآخرين، وقال لهم: أندرون من هذا؟! فقالوا: لا. فقال لهم: هذا علي بن الحسين عليه السلام. فوثبوا فقبلوا يده ورجله وقالوا: يا بن رسول الله، أردت أن تصلينا نار جهنم؟! لو بدرت منا إليك يد أو لساناً أما كنّا قد هلكنا آخر الدهر؟! فما الذي يحملك على هذا؟! فذكر لهم أنه ذات مرة سافر مع جماعة كانوا يعرفونه فأخذوا يبالغون في تعظيمه وإبداء الاحترام له لنسبه من رسول الله صلى الله عليه وآله - ومن تواضعه عليه السلام قال^(٢) عن هذا: - فأعطوني ما لا أستحقه من ذلك^(٣).

فيلاحظ القارئ الكريم أيّ فناء للذات هذا الذي يجعل الإمام المعصوم عليه السلام يحرص على أن لا يتعرّف عليه الرفقة في السفر، ويشترط أن يكون في خدمتهم، وهو هو في الشرف من حيث الحسب والنسب والرفعة

(١) أنظر: القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ٢، ص ٣٩٩. وأيضاً: الكوفي، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفي: ص ٥٢٣.

(٢) أي: الإمام زين العابدين عليه السلام.

(٣) أنظر: الصدوق، محمد بن علي بن الحسين، عيون أخبار الرضا: ج ٢، ص ١٥٦.

عند الله سبحانه وتعالى. وما أكثر القصص والمواقف التي وردتنا عنهم عليهم السلام التي تُلهمنا أسمى معاني نكران الذات وإذابة الأنا.

وفي الحقيقة، فإن نكران الذات - مع الغُص عن رجحانه شرعاً - هو من الصفات الحميدة التي تنمُّ عن طيب السريرة وقوَّة الشخصية في نفس الوقت؛ فإن مَنْ لا يستثمر وجهته مثلاً - ويزهد في كلِّ ما يترتب عليها ويرضى بأن يُنظر إليه كمَنْ عداه أو أقلَّ منهم - هو صاحب إرادة قويَّة وذو شخصية صُلْبَة؛ ولهذا فتجدُ هذه الصفة قائمةً عند العظماء، وهي مبتغى كلِّ عاقل؛ ولهذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «طُوبَى لِمَنْ طَابَ خُلُقُهُ، وَطَهَّرَتْ سَجِيَّتُهُ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ، وَحَسُنَتْ عَلَانِيَتُهُ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ»^(١).

وفي صدر الإسلام قصصٌ رائعة في نكران الذات تصلح أن تكون شاهداً على أنَّ هذه الصفة متأصلة في المجتمعات الراقية، من حيث الخصال المجتمعية الحسنة، كتلك القصص المرتبطة بالأنصار من أهالي المدينة المنورة الذين احتضنوا إخوانهم من المهاجرين وقدموا للأجيال اللاحقة قاطبةً أسمى صور نكران الذات وحبِّ الخير للآخرين، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)، مع أنهم كانوا قريبي عهدٍ بالإسلام، مما يكشف أنَّ هذه

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٤٤.

(٢) الحشر: آية ٩. وأنظر: الطبرسي، فضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٩، ص ٤٣٣.

الفصل الثالث: عقبات في طريق الإنابة إلى الله..... ١٠٩

الخصلة هي خُلُقٌ إنسانيٌّ رفيع، يتحلَّى به الإنسان أو المجتمع الرشيد، فيظهر بمجرد أن تتحقق ظروفه المناسبة.

٥- أن يتأمل الشخص في قناعاته وآرائه ومواقفه في الفترات السابقة، وكيف أنها تتبدل بمرور الزمان وزيادة التجارب وتعاضل الخبرات، فيقينه بالأمر بقضية ما يتبدد ويصبح شكاً وحيرة، وربما يتحوّل إلى يقينٍ بالنقيض. وتعصّب لرأي أو مذهبٍ ربما تحوّل إلى تردّدٍ ومجرد احتمالٍ في قبال احتمال، إن لم يحل محله تعصّب لرأي آخر مخالفٍ يضادّه؛ فإن إدراك تجسّد هذه الحقيقة في مراحل حياته السابقة يُعطيه صورةً واقعيةً عن قصور نظرة الإنسان، وكيف أن القناعات تتبدل، وقد تتحوّل إلى النقيض، فيساعده ذلك كثيراً في أن لا يكون مستبدّاً برأيه، منغلّقاً على نفسه، لا يتقبّل الآخرين ولا يُعطي مجالاً لسماع آرائهم أو تقبّلها.

وهذه الطريقة في الحقيقة ناجحةٌ جدّاً في تنمية الذات، والوصول إلى بوابة البحث عن الحقيقة، ورفع حاجز الأنا، وفتح الطريق أمام تهذيب النفس، والإنابة إلى الله سبحانه.

العقبة الثالثة: حبُّ الدنيا

الدُّنيا دارنا التي نولّد ونحيا فيها، فنعيش في أماكن منها، فتعلّق بها قلوبنا، وتمرُّ علينا أوقاتٌ منها نسعدُ أو نحزنُ فيها، فتعلّق ذكراها في أذهاننا، ونخالط فيها أحبةً تصبوا إليهم أفئدتنا، ومنهم من نضحى بكل شيء في

سبيلهم، كالأولاد والآباء والزوجة، ولنا فيها شؤونٌ وأموالٌ بذلنا في سبيل الحصول عليها ما هو غالٍ ونفيس، من وقتٍ وجهدٍ أو وجاهةٍ وغير ذلك، فيعزُّ علينا الاستغناء عنها. وكلما كانت أعمارنا تمضي كلما ازداد تعلقنا بتلك الأمور وتعاطم حرصنا عليها. هكذا جرَّت سُنَّةُ الله في ذلك، وهكذا هي فطرتنا التي فُطِرنا عليها، فكانت غريزة حُبِّ الذاتِ من أقوى الغرائز فينا، وسجيَّة حفظ النَّفسِ من أكبر مظاهر تلك الغريزة، ليكون ذلك هو الدافع إلى الحرص على كلِّ ما يتعلق بذاتنا.

هذا، ولكننا إذا رجعنا إلى النصوص الشرعية نجد فيها ذمًّا للدنيا، ونهياً عن حُبِّها والتعلُّق بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغْرَزْكُمْ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَزْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١). وورد في الحديث: «حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(٢)، فكيف نوفِّق بين ذاك وهذا؟

وفي الحقيقة يُحيينا عن ذلك الإمام زين العابدين (عليه السلام)، حينما سُئل عن أيِّ الأعمال أفضل عند الله؟ فذكر (عليه السلام) أنَّ أفضل الأعمال بعد المعرفة بالله تعالى وبنبيه (عليه السلام) هو بُغْضُ الدُّنْيَا، وعِلَّةُ ذلك أنَّ حُبَّها تجتمع فيه شُعْبُ المعاصي؛ ولذلك قال الأنبياء والعلماء: حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، ثم ذكر (عليه السلام) أنَّ الدُّنْيَا دُنيَاءُ: دُنْيَا بِلَاغٍ، وَدُنْيَا مَلْعُونَةٌ^(٣)، فالدُّنْيَا إذا كانت تُوصِلُ إلى الغاية

(١) لقمان: آية ٣٣.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ج ١، ص ٢٥.

(٣) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣١٧.

الصحيحة - وسُليكتَ كطريقٍ إلى بُلوغِ رضا الله سبحانه والوفود عليه في الآخرة بقلبٍ سليم - فهي دُنيا البلاغ، أي: التي يبلغ بها الإنسان الغاية المحمودة، وهذه لا يشملها الذمُّ المذكور، بل ربما عبَّر عن المواهب التي نحصل عليها فيها بتعابير إيجابية، من قبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرُكْحَتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، فعبر عن الفوائد والأرزاق التي يحصل عليها الناس فيما لو آمنوا بالله واتقوا بأنّها: بركاتٌ. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٢)، فعبر عن الفوائد التي نحصل عليها في الدنيا من طعام وشراب وملابس ونحو ذلك بأنّها: طيّباتٌ من الرزق.

وتكونُ الدُّنيا مذمومةً ويُنهى عن حُبِّها والتشدُّقِ بها إذا كانت مطلوبةً لذاتها، بأنْ تُجعلَ هي الغاية، فتُصبح أكبرَ حجابٍ يصدُّ عن الوصول إلى الغاية الحقيقية التي خُلق الإنسانُ لأجلها، ألا وهي بلوغ الرضا الإلهي والوفود عليه سبحانه في الآخرة بقلبٍ سليم.

وربما أمكننا تقريب حال الدُّنيا بالأوراق النقدية، فهي في حدِّ نفسها مجرد أوراق حالها كحال أيِّ ورقة أخرى لا قيمة عينية لها، ولكنها بلحاظ ما تعبَّر عنه من قيمة مالية معتبرة من قبل البنك - مثلاً - تكون ذات قيمة تجعلها

(١) الأعراف: آية ٩٦.

(٢) الأعراف: آية ٣٢.

ثمينة ويسعى الناس للحصول عليها، فإذا استعملها شخصٌ بالكتابة عليها أو بإحراقها ليضيء المكان مثلاً فإنه سيُلام على ذلك بالرغم من أن هذه الاستعمالات هي متعارفة في الأوراق العادية، بينما هو لا يلام لو اشترى بها ما يحتاجه من طعام أو شراب مثلاً. وهكذا الدنيا فهي في حدِّ نفسها لا قيمة لها، بل هي مجرد لعب وهو وتفاخر قد نغترُّ بها فنراها جميلةً، ونتخيلها مُحَصَّرةً زاهيةً ولا نعلم أنَّ عاقبتها القريبة هو الاصفرارُ والذبول والزوال، كالزرع الذي سرعان ما يصفرُّ، فتَهْبُّ عليه الريح، فتذرُّه ذرّاً، فلا يبقى منه غير الحسرة والخسران: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَهُ مُمْصِقاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(١). ولكنها في نفس الوقت محلُّ تقديم العمل الصالح، واغتنام ما يحصل به الكمال والقرب من الله سبحانه.

وفي الواقع، فإنَّ تصوّر هذه الحقيقة - أعني: أنَّ للدنيا وجهين ولحاظين بالنحو الذي تقدّم - قد يكون أمراً سهلاً ويسيراً على المستوى النظري، ولكن الثبات على هذا التصرُّو والاعتقاد على مستوى التطبيق والعمل ليس بهذه السهولة، فإنَّ أكثر الناس تجدهم عملياً حريصين على دنياهم أكثر من حرصهم على دينهم وآخرتهم، بل ترى كثيراً منهم عند الاختبار يبيع دينه

وآخرته بمنصبٍ أو جاءٍ أو مالٍ، بل قد يصل الأمر إلى المجاهرة بذلك. وينقل لنا التاريخ أنَّ الحُتات بن يزيد المجاشعي - وهو من أصحاب معاوية^(١) وعثمانيّ الهوى - قَدِم على معاوية مع نفرين من وجهاء الكوفة ومَن يُحسبون في معسكر أمير المؤمنين عليه السلام^(٢)، فأعطى معاوية هذين اللذين يُحسبان في جماعة عليّ عليه السلام أكثر مما أعطاه، فلمَّا خرجوا من عنده عرف الحُتات منهما مقدار ما أعطاهما معاوية، فرجع إليه يعاتبه على تفضيلهما عليه مع أنَّه من أتباعه، فأجابه معاوية قائلاً: «إني اشتريتُ منهما دينَهما، وأمَّا أنت فاعتمدتُ على هواك في عثمان. فما كان من حُتات إلا أن يقول له: وأنا أيضاً أبيعك ديني!»^(٣).

وفي قبال ذلك نجد مواقف تستحقُّ الإشادة والتوقف عندها للترود منها معنوياً، كموقف الحر بن يزيد الرياحي الذي وقف في لحظةٍ تاريخيةٍ ومفصليةٍ بالنسبة له ليخترَ نفسه بين الآخرة والدنيا، والجنة والنار، حتى قال مقولته المشهورة: «فوالله، لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطعتْ وحرَّقتْ»^(٤)، فهذه المواقف وتلك كما تُعطينا صورةً عن الواقع وخطورة الامتحان الذي لا بدَّ للإنسان أن يعيشه، فهي تعلِّمنا وتُطلعنا على تجارب مرَّت على أناس مثلنا،

(١) وقد أخى رسول الله ﷺ بينه وبين معاوية بن أبي سفيان. أنظر: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ج ١، ص ٤١٢.

(٢) وهما الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة.

(٣) أنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، أسد الغابة: ج ١، ص ٣٧٩.

(٤) المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: ج ٢، ص ٩٩.

فقد نتعرَّض إلى ما تعرَّضوا إليه، فتمرُّ بنا مواقف كتلك التي مرَّت بهم، ونتعرَّض لضغوطاتٍ كتلك التي واجهوها، وتعرَّض علينا مغرياتٌ كالتي عُرِضت عليهم. وما أحسنَ أن يستفيد المرء من تجارب الآخرين، فيكون الربحُ له والثمن على غيره، ويكفيها استفادةً مراجعةً مثل تلك المواقف والاطلاع عليها أن نأخذ العبرة منها بمقدار الالتفات إلى أصحاب تلك المواقف وما هو مصيرهم الذي وصلوا إليه، وأين صاروا الآن؟ وأين تلك الأمانى والجوائز أو الهبات التي اغتروا بها ما هو مصيرها؟ الكلُّ ذهب ولم يبقَ شيء إلا الموقف وأثره على الآخرين، ومن ورائهم حسابٌ عسير عند مليكٍ مقتدر، وهل يستوي موقف عمرو بن العاص حينما باع دينه بدنيا معاوية مع موقف حجر بن عدي رضي الله عنه الذي لم يتبرأ من أمير المؤمنين عليه السلام في قبال أن يُعفى عنه ليعيش بضعة سنين غير مضمونة؛ وربَّما باغته الموت بسبب المرض أو غيره فيمنعه من أن يعيش تلك الأيام أو السنوات التي كان يتأمل أن يحياها فيما لو كان قد فشل في الامتحان؟!

آثار سلبية لحب الدنيا

وللتعلُّق بالدُّنيا آثار سلبية خطيرة تترتب عليه:

منها: الانغماس في المعاصي والتعدّي على حدود الله عزّ وجل وعلى حقوق الآخرين؛ فإنَّ مَنْ أَحَبَّ شيئاً سعى إلى الحصول عليه بأي ثمن، فإذا كان المحبوبُ هو الدنيا بما فيها من مظاهر - كالمنصب والجاه والمال والملاذات -

فسوف يكون الحرص على نيل تلك المظاهر على حساب الدين والتعدي على حدوده وحقوق الآخرين؛ ولذلك ورد في الحديث: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»^(١).

ومنها: كراهة لقاء الله سبحانه وتعالى، فهذا نتيجة حتمية، بل حُبُّ الدُّنْيَا والتعلُّقُ بها ما هو إلا وجه آخر لعدم تمَنِّي لقاء الله سبحانه، فهما وجهان لعملة واحدة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا...﴾^(٢)، فَقَرَنَ رضاهم بالحياة الدُّنْيَا واطمئننهم بها بعدم رجائهم لقاء الله.

ومنها: أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يوجب تعطيل العقل أو فسادَه وانحرافه. فهو يُوَدِّي إلى الانغماس في الملذَّات والولَه في مغامِر الدُّنْيَا، وهذا يُلهي العقل ويحجبه عن التفكير أو التعلُّم، أو يجعله مشغولاً في سُبُل تحصيل المزيد من تلك المغامِر، فتتعلَّل أكبر نعمة وهبها الخالق للإنسان مِيزَتَه عن سائر المخلوقات. وفي هذا الصدد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «حُبُّ الدُّنْيَا يُفْسِدُ الْقَلْبَ، وَيُصِمُّ الْقَلْبَ عَنْ سَمَاعِ الْحِكْمَةِ»^(٣). وجاء في بعض وصايا الإمام الكاظم عليه السلام هشام بن الحكم: «يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ رَضِيَ بِالْدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا»^(٤) مع

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣١٧.

(٢) يونس: آية ٧.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٦٥.

(٤) أي: بالقليل منها.

الحِكْمَةِ، وَلَمْ يَرْضَ بِالذُّنُوبِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَعَ الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ. يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعُقَلَاءَ تَرَكَوا فَضُولَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ الذُّنُوبُ، وَتَرَكَ الدُّنْيَا مِنَ الْفَضْلِ، وَتَرَكَ الذُّنُوبَ مِنَ الْفَرَضِ^(١)»^(٢).

ومنها: أَنَّ حَبَّ الدُّنْيَا يورث الطمع والشره. وقد روي عن أمير المؤمنين: «حُبُّ الدُّنْيَا يُوجِبُ الطَّمَعُ»^(٣). وعن النبي ﷺ: «مَنْهُمَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ دُنْيَا، وَطَالِبُ عِلْمٍ»^(٤). وهذا شيءٌ طبيعي؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا حَرَصَ عَلَى الْحَصُولِ عَلَيْهِ وَالْحِفَافِ عَلَيْهِ، وهل الدنيا إلا ما يناله المرء في حياته من أموال ومنافع، فإذا كان همُّه في تحصيل المزيد منها فهو لا يزداد إلا رغبةً في الزيادة، ولهذا قيل: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ»^(٥)، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(٦)، بمعنى: أَنَّ مَقْيَاسَ الْغِنَى - والذي هو بمعنى الاستغناء وعدم الحاجة - ليس هو أن تكثر أموال الشخص، فربما تجد شخصاً يملك أموالاً كثيرة ولديه

(١) أي: إذا كانوا قد تركوا فضول الدنيا - أي: منافعها المباحة التي لا يضطرون إليها، وهذا شيء راجح بلا إلزام، فما بالك في ترك الذنوب الذي هو واجب ولازم، فإنهم يتركونها من باب أولى.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ١٨.

(٣) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ١٤٢.

(٤) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٦.

(٥) بفتح الرَّاء: متاع الدُّنْيَا وكثرة المال. أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٧، ص ٧٠ و ص ٧٧.

(٦) وهو حديث يُنسب للنبي ﷺ. أنظر: الحرَّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٥٧.

أملاك عديدة، ولكن بالرغم من ذلك تجده يطمع بما في أيدي الناس، ولا يتحرّج عن الطلب منهم، أو مداراتهم من أجل أن يناله عطاؤهم، بينما في المقابل قد تجد شخصاً بالعكس من ذلك لا يملك أموالاً كثيرة، ولكنه قانع بما لديه مستغني به.

سُبُل علاج حبّ الدنيا

١. التفكّر في حقيقة الدنيا وكيف أنّ أيامها تنقضي بسرعة وكأنّها تتسابق، فما مضى يوم إلا وانقضى من العمر شيء واقترّب الإنسان من الرحيل بمقدارٍ. وكلّ واحدٍ منّا لو تأمّل في ما مضى من عُمره ليرى ما هي الحصيلة التي خرج بها، واستثنى ما يرجع إلى آخرته من عملٍ صالحٍ فليس هناك ما يستحقّ الاهتمام وإشغال النفس به. ولنفترض أنّ الإنسان صار أغنى الأغنياء من حيث الكسب المادي، وفي أرفع منصب من حيث الاستفادة المعنوية، أفيكون ضامناً لبقاء ذلك واستمراره؟! فلو تعرض لمرضٍ مما نحن في معرضه من الأمراض المستعصية، فهل ينفعه ما حصل عليه؟ ألا ترى أنّ الذي يُصاب بمثل ذلك لديه استعداد في أنّ ينفق كلّ ما يملك في سبيل الحصول على الشفاء؟!

فيُحكى أنّ هارون الرشيد طلب ماءً ليشربه، فقال له بعض من كان في مجلسه: لو مُنعت هذه الشُّربة بكم تشتريها؟ فأجابه هارون: أشتريها بنصف ملكي. فلمّا شرب الماء قال له: لو مُنعت خروجها بكم تشتريه؟ فأجابه:

بمُلْكِي. فقال له: إِنَّ مُلْكاً لَا يُسَاوِي شُرْبَةَ مَاءٍ وَخُرُوجَ بَوْلَةٍ لَجَدِيدٍ أَنْ لَا يُنَافَسَ فِيهِ^(١).

كما يُحْكِي أَنَّ زِينُونَ مؤسس المدرسة الفلسفية الرواقية رأى فتىً مهموماً فقال له: ما الذي أَهَمَّكَ؟ فأجابه الفتى: الفقر. فقال له زِينُونَ: أَرَأَيْتَ لو كُنْتَ في غاية الغنى فأبحرت في سفينة فأنكسرت وأوشكت على الغرق، أَمَا كُنْتَ تفتدي نفسك بكلِّ ما تملك؟ فأجابه الفتى: نعم. فقال له زِينُونَ: ولو كُنْتَ مَلِكاً على جميع أصقاع الدنيا وأحاط بك مَنْ يريد قتلَكَ، أَمَا كُنْتَ تشتري سلامَتَكَ بملكك كلَّه؟ قال: نعم. فقال له زِينُونَ: إِذْنُ ها أَنْتَ الْآنَ ذَاكَ الغني الذي افتدى نفسه، وذاك الْمَلِكُ الذي اشترى سلامته^(٢).

فإِذْنُ ما نحصل عليه من أمور مادية أو مناصب وعناوين معنوية دنيوية لا قيمة واقعية له، ولو كان له قيمة فهي لا تبقى بل سرعانَ ما تزول، وحينها هي حاصلة عنده تجده مهموماً يُقْلِقُهُ أمرُ الحفاظ عليها.

والعمرُ يمضي لا ينتظر فلو نظر الشخص إلى نفسه لوجد أنَّ صورته تغيَّرت عما كانت عليه قبل سنوات، وحتى أفكاره وقناعاته في تبدلٍ مستمر، وكأنَّ ابن اليوم هو غيره ابن ما قبل عشر سنواتٍ مثلاً. وقد قال أمير

(١) أنظر: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ: ج ٦، ص ٢٢٠.

(٢) أنظر: الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ج ٢، ص ٩٨.

المؤمنين عليه السلام: «ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر»^(١).

وحينما جاء ملك الموت نوحاً عليه السلام قال له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: مثل رجل بُني له بيت له بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر^(٢). مع أن عمر النبي نوح عليه السلام يعدل عمر أحدنا عشرات المرات تقريباً.

فاستحضار حقيقة الدنيا وأنها لا تدوم، وأن كل ما فيها غير باقٍ، وأنها خُلقت للابتلاء والامتحان ولتكون مرقاةً للآخرة واكتساب المراتب العليا فيها ينفع في تقليل التعلق فيها أو انتفائه كما هو واضح.

٢. الزهد في الدنيا، بمعنى ترك الرغبة فيها والحرص عليها^(٣)، وهو يختلف عن العلاج الأول؛ لأنَّ العلاج السابق كان هو استحضار حقيقة الدنيا وإدراك حقارتها وقصرها ونحو ذلك. وما نريده هنا في العلاج الثاني هو ترك الرغبة فيها وعدم الإقبال عليها، وهذا يختلف عن مجرد الإدراك، وإن كان هو يترتب عليه وقد يلزمه، فإنَّ مَنْ يُدركُ حقارةَ شيءٍ يُناسب له أن يزهد فيه ولا يطمع به.

(١) نهج البلاغة: ص ٢٧٨.

(٢) أنظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٣، ص ٣٣٣.

(٣) أنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٣، ص ١٩٦. وأيضاً: الطريحي، فخر

الدين، مجمع البحرين: ج ٣، ص ٥٩.

فالزُّهد في الدنيا بَوَابُة الخَيْر للمؤمن. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «جُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا»^(١).

ومن روائع الحِكَم في المقام ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام من قوله: «مَا الدُّنْيَا؟! وَمَا عَسَى أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا؟! هَلْ هِيَ إِلَّا طَعَامٌ أَكَلْتَهُ، أَوْ ثَوْبٌ لَبَسْتَهُ، أَوْ امْرَأَةٌ أَصَبْتَهَا؟!»^(٢)، فحاجة الإنسان واحدة، سواء كان يملك الدنيا كلها أم كان إنساناً اعتيادياً، فما يحتاجه من دنياه هو طعام يتقوى به، وثوب يستره، وزوجة يسكن إليها.

ثم إنَّه لا بد من التأكيد هنا على قضيتين مهمتين:

القضية الأولى: أنَّ أهم أسباب حصول الزهد في الدنيا والإعراض عن زخرفها هو تذكُّر الموت بشكل مستمرٍّ، واستحضار حقيقة أنَّه مصيرنا المحتوم، وأنَّه لا مفرَّ منه؛ فإنَّ ذلك يعرِّفنا حقيقة الدُّنيا وأنها زائلة غير دائمة، ويقلِّل أو يرفع الطمع في منافعها الزائلة، فيجعلنا نعمل لآخرتنا ونستعد لها. وقد سأل رجل الإمام الحسن عليه السلام عن السِّر الذي يجعلنا نكره الموت، فأجابهُ عليه السلام: «لأنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ أَخْرَبْتُمْ دُنْيَاكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النَّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ»^(٣).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٣٣.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٣٩٠.

والقضية الثانية: أنَّ المقصود من الدُّنيا المذمومة والتي يُحْتُّ على الزهد فيها هو ما يكون منها مانعاً عن الإنابة إلى الله عزَّ وجل والاستعداد للآخرة والعمل لأجلها، وليس المقصودُ منها كلُّ ما يتعلَّق بالدنيا مطلقاً، فما نكون بحاجةٍ إليه في حياتنا - من مأكَل وملبس ومأوى ونحو ذلك - لا محذور في السعي لتحصيله والاهتمام في المحافظة عليه، بل تعدُّ التوسعة على النفس والعيال من الأمور الراجحة شرعاً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١). وقد ورد في الحديث: «ليس الزُّهْدُ في الدنيا بإضاعةِ المالِ، ولا تحريمِ الحلالِ، بل الزُّهْدُ في الدنيا أَنْ لَا تَكُونَ بِهَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). فالزهد ليس هو ترك الدنيا مطلقاً، بل الزهد أن لا تملكك الدنيا وتستحوذ عليك. نعم من الطبيعي أن الاستغراق في النعم والدخول في الترف يوجب أن يكون الشخص في معرض مخاطر الوقوع في الهلكة، وتزداد فرصة أن يتعلَّق الشخص بالدُّنيا أكثر؛ فينسى أو يتناسى آخرته، ولذلك وُصِفَ أصحابُ الشمال - والذين هم أهل النار -: بأنَّهم كانوا من أهل الترف، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّنْ مَّحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾^(٣)، أي: إنَّ الترف

(١) الأعراف: آية ٣٢.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٥، ص ٧٠.

(٣) الواقعة: آية ٤١-٤٥.

أَلْهَاهُمْ عَنِ الْإِنْتِهَاءِ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، وَشَغَلَهُمْ عَنِ الْإِعْتِبَارِ، وَكَانُوا يَتْرَكُونَ الْفَرَائِضَ طَلَبًا لِرَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ، فَصَارَ مَصِيرُهُمُ النَّارَ^(١).

٣. ترويض النفس على القناعة والرضا باليسير، فَإِنَّ الَّذِي لَا يَقْنَعُ بِمَا تيسَّرَ لَهُ وَأَعْطِيَ لِنَفْسِهِ الْعَنَانَ فِي السَّعْيِ وَرَاءَ مَطَامِعِ الدُّنْيَا سَوْفَ لَا يَقْتَنِعُ بِالكَثِيرِ، وَسَيَبْقَى يَلْهَثُ وَرَاءَ الْحَصُولِ عَلَى مَزِيدٍ مِنَ الْمَكَاسِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَوَرَدَ عَنْهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ قَنَعَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ»^(٢). وَحِينَهَا شَكََا شَخْصٌ لِلْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ وَقُوعِهِ فِي الطَّمَعِ - وَعَدَمِ الْقَنَاعَةِ بِمَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ، وَطَلَبَ مِنَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْلَمَهُ شَيْئًا يَنْتَفِعَ بِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ - قَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنْ كَانَ مَا يَكْفِيكَ يُغْنِيكَ فَأَدْنَى مَا فِيهَا يُغْنِيكَ، وَإِنْ كَانَ مَا يَكْفِيكَ لَا يُغْنِيكَ فَكُلُّ مَا فِيهَا لَا يُغْنِيكَ»^(٣)، أَيْ: إِنَّكَ إِنَّمَا تَطْلُبُ الْغِنَى، وَالْغِنَى هُوَ مَا يَكْفِيكَ مِمَّا يَسُدُّ رَمَقَكَ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَمَا يَسْتَرِكَ مِنْ لِبَاسٍ وَمَا يُؤْوِيكَ مِنْ مَسْكَنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هُوَ مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ مَا زَادَ عَلَيْهِ يَدْخُلُ فِي السَّعَةِ، وَرَبَّمَا دَخَلَ فِي الْبَطْرِ وَالتَّرَفِ أَيْضًا، فَإِنْ كَانَ هَذَا مَعْنَى الْغِنَى، فَإِنَّ أَقْلَ مَا فِي الدُّنْيَا فَهُوَ يُغْنِيكَ، فَالْمَأْكُلُ يَكْفِي مِنْهُ لَقِيَمَاتُ وَالسَّيَرُ يُكْتَفَى فِيهِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَلَابِسِ وَهَكَذَا. هَذَا إِذَا كُنْتَ تَغْنِي بِمَا يَكْفِيكَ، وَإِنْ

(١) أنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج ٩، ص ٣٦٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق.

كَانَ مَا يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ وَيَسُدُّ رَمَقَكَ وَيُسْتَرِّكَ وَيُؤْوِيكَ لَا يُغْنِيكَ وَلَا تَقْنَعُ نَفْسُكَ بِهِ، فَلَوْ حَصَلَتْ عَلَى كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَنْ تَغْتَنِي وَتَسْتَقْبَى تَطْلُبُ الْمَزِيدَ.

٤. الطمع بما عند الله مما وعد به المؤمنين الذين يعملون الصالحات من جوائز ومراتب، فيسلب النفس بذلك؛ فَإِنَّ مَنْ أَيْقَنَ بِالْآخِرَةِ سَلَا عَنْ وَقَدْ جَاءَ فِي خُطْبَةٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَصِفُ فِيهَا الْمُتَّقِينَ: «لَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقَرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرَفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ»^(٢). وكلما ازداد يقين الشخص بالآخرة وما فيها من ثواب كلما كانت عملية تسليته نفسه أسهل وأفضل، وكلما كان هذا المعنى حاضراً في خاطره أكثر كلما كان شوقه للآخرة وما فيها من نعيم أكبر، وبالتالي يكون طمعه في الدنيا وما فيها من نعيم زائلاً أقل.

٥. مخالطة أهل الآخرة من المتدينين الأخيار، والابتعاد عن أهل الدنيا الذين يُعْرِضُونَ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَعَنِ الْآخِرَةِ. فقد سئل عيسى بن مريم عليه السلام فقيل له: مَنْ نَجَالِسُ يَا رُوحَ اللَّهِ؟ فقال: «مَنْ يَذْكُرُكُمْ اللَّهُ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عَمَلِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيَرْغَبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ»^(٣)، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا

(١) أنظر: الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٤١.

(٢) نهج البلاغة: ص ٣٠٣.

(٣) الحلي، أحمد بن فهد، عدة الداعي ونجاح الساعي: ص ١١١.

يُنْبَغِي لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُوَاخِيَ الْفَاجِرَ؛ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَهُ فِعْلَهُ، وَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ»^(١).

العقبة الرابعة: البيئة السيئة

ومن العقبات المهمة في طريق الإنابة إلى الله سبحانه البيئة السيئة؛ فإن تأثيرها سلباً أو إيجاباً على شخصية الإنسان وقناعاته وسلوكياته واضح جداً، حتى قيل: إِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ بَيْتِهِ. فإذا كانت البيئة سيئة كان لذلك الأثر الكبير في تبلور شخصية الفرد من جهة اكتسابه لكثير من الصفات السلبية. ومن جهة أخرى، فإنَّ الذي يريد النهوض والارتقاء عن مساوئ بيئته السيئة فقد يصطدم بمحاربة أفراد بيئته له، خصوصاً إذا مارس دور المصلح، وحاول تغيير بيئته نحو الصلاح؛ فإنه آنذاك سيصطدم بهم حتماً؛ لأنَّ أهداف الطرفين متعارضة عادةً.

كما أن العيش في البيئة السيئة هو في الواقع على نحوين؛ لأنَّه تارةً يكون باختيار من الفرد، وأخرى يكون بلا اختيار منه؛ فقد يكون العيش بتلك البيئة باختياره، كما في أصدقاء السوء، وشركاء العمل واختيار الطرف الآخر في الحياة الزوجية عادةً ونحو ذلك، وفي مثل ذلك يتحمل الشخص المسؤولية كاملةً من البداية، فما دام هذا الشيء باختياره فيلزمه أن يعتني باختياراته من

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٤٠.

البداية، فيختار الصديق الفاضل والشريك الحَسَنَ والزوج أو الزوجة الجيدة. والشريعة أَكَّدَت على هذا المعنى كثيراً. وفي الحقيقة فإنَّ للآباء والأمهات هنا دوراً كبيراً يتبلّور في الأخذ بيد الأبناء والبنات ومساعدتهم في اختياراتهم في ذلك، وإفادتهم من تجاربهم وخبراتهم التي حصلوا عليها في حياتهم، وعليهم أن لا يدعوا سير الأمور من هذه الناحية للظروف والمصادفات ويتركوا متابعة أمور أبنائهم وبناتهم، فكم من شاب أو شابة خسرهم أهلهم بسبب أصدقاء وصديقات السوء، فلا ينفعهم الندم بعد ذلك؟ وقد ورد في الحديث: «مَنْ يَصْحَبْ صَاحِبَ السُّوءِ لَا يَسْلَمْ»^(١). ولكن هذا لا يعني أنَّ المسؤولية تقع بتمامها على أولياء الأمور - وأنَّ الأولاد لا يتحملون المسؤولية في هذا المجال - بل الأمر يَخْصُّهم بشكل مباشر، وبالتالي فما يترتَّب على سوء الاختيار للأصحاب أو الشريك مثلاً من نتائج سلبية يعود عليهم بالدرجة الأساس، فيتعيَّن على كل شخص أن يتحمَّل المسؤولية، وأن يكون جاداً في اختيار الصديق أو المرافق له.

وأما إذا لم يكن دخوله في أجواء البيئة السيئة باختياره - كما لو وُلِدَ في عائلة غير ملتزمة أو كان مُلتزماً بوظيفةٍ تودِّي إلى مخالطة السيئين أو كان ساكناً في الأقسام الداخلية لإسكان طلبة الكليات مثلاً مع زملاء سيئين، ونحو ذلك - فإن هذا في الحقيقة من الابتلاءات العظيمة والامتحانات

(١) الحرَّاني، علي بن الحسين، تحف العقول: ص ٣٧٦.

الصعبة، وهو ابتلاءٌ مرَّ به الأنبياء والأولياء والمصلحون، ولا ينبغي للمؤمن في مثل ذلك الاستسلام والتنازل عن مبادئه أو التهاون والانجراف مع الأجواء السلبية، فينبغي للمؤمن أن يكون وقوراً ثابتاً عند الهزاهز والفتن، صبوراً عند البلاء^(١). ولكن هذا لا يعني أن يكون شديداً مع رفقاته، بل لا بدَّ له من المحافظة على حُسن المعاشرة معهم، وعدم الانزواء عنهم، واعتماد حُسن الخُلُق معهم قدر الإمكان، وقد ورد في الحديث: «المُؤْمِنُ مَأْلُوفٌ، وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ»^(٢)، ولعل مخالطتهم بهذا الشكل تؤدي إلى التأثير بهم وإصلاحهم.

سُبُلُ علاج العيش في البيئة السيئة

وليس هناك في الحقيقة ما يمكننا أن ندَّعيه علاجاً لكلِّ مَنْ يعيش في بيئة سيئة، بأنَّ يكون شيئاً واحداً ينفع في جميع الظروف والحالات، بل يختلف ذلك بحسب الظروف. نعم لا بدَّ من التأكيد على أمر مهم، وهو ضرورة أن يجعل الشخص من أهمِّ أولوياته في هذا المجال الحفاظ على نفسه وأخلاقياته، فإنَّ أحرز ذلك فليكن اهتمامه بعد ذلك في محاولة التأثير على الآخرين، والمبادرة إلى إصلاحهم والتأثير عليهم. وأهمُّ عنصر ينفع على الصعيدين معاً هو الحفاظ على وقاره وأخلاقياته؛ فإنَّ لذلك أثراً عظيماً في فرض الاحترام

(١) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٠٢.

الفصل الثالث: عقبات في طريق الإنابة إلى الله..... ١٢٧

على الآخرين وفي التأثير إيجاباً عليهم أيضاً. فإذا وجد أنَّ المبادرة إلى التأثير بهم والمحاولة في إصلاحهم تؤدِّي إلى التأثير به سلباً كما لو أدَّى ذلك إلى أن يتأثر هو بهم - أو إلى المساس بسمعته بسبب مخالطته لهم ونحو ذلك - فليكتفِ بالمحافظة على نفسه وسمعته ومستوى أخلاقه.

الفصل الرابع
البرنامج العملي

الفصل الرابع: البرنامج العملي

كُلُّ مُنْصَفٍ يُدْرِكُ بوضوح أنَّ الإسلام دين متكامل لم يُغفل جانباً من جوانب الحياة المختلفة، ولم يدع مجالاً إلا وبين ما يخصه من أحكام وآداب، حتى اشتهرت عندنا مقولة: (ما مِنْ واقعةٍ إلا ولها حكم)^(١). فإذا كان الأمر كذلك فهل يُعقل أن يأمرنا الشرع بالإنابة إلى الله والعودة إلى الفطرة السليمة بعدما شأها ما شأها من شوائب ويتركنا من دون أن يرشدنا إلى الطريق الصحيح الذي يوصلنا إلى المطلوب؟ وهل يُعقل أن يتركنا في مثل هكذا مسألة مصيرية وحساسة نحن وما تهتدي إليه خيالاتنا من خيارات، أو ما تُدرکه أذواقنا الشخصية من حلول واقتراحات، فيُطلق العنان لاجتهادات المجتهدين، ويُفتح الباب لاقتراحات المتطفلين، وتتلقفنا أيدي أصحاب البدع والأهواء، كلُّ يريد أن يجذبنا إلى طريقته المبتكرة، ويطمع في إقناعنا بفكرته المقترحة؟!

(١) وهي وإن لم تكن مروية عن أهل البيت عليهم السلام بالفاظها، إلا أنَّ مضمونها مستفاد من روايات عدة. فأنظر مثلاً: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٥٩، باب: الرد إلى الكتاب والسنة وأنه ليس شيء من الحلال والحرام وجميع ما يحتاج الناس إليه إلا وقد جاء فيه كتاب أو سنة.

وهنا في الحقيقة توجد مفارقة غريبة جداً ينبغي الالتفات إليها والتأمل في دوافعها، وهي أننا في الوقت الذي نجد فيه الإنسان حريصاً على ماله أو منصبه أو جاهه وسمعته الدنيوية بأشدّ مراتب الحرص، بحيث لا يستودع ماله عند مَنْ يحتمل فيه الخيانة والتعدّي عليه أو عند مَنْ يتوقّع فيه الغفلة والتسامح في الحفظ وإن كان احتمال ذلك ضعيفاً، ولكننا نجده في نفس الوقت يستأمن على دينه مَنْ تُثار حوله الشبهات، وتحوم حوله أمارات الظنّ بسوء النية والسريرة، أو ضعف الرأي وعدم البصيرة، ويُسلم له عنقه فتراه يأتمر بأمره وينزجر بنهيّه، فيطيعه طاعة عمياء، وإن أدّى ذلك به إلى الابتعاد عن الخطّ الواضح لأهل البيت (عليه السلام)، المتصف بالوضوح والاستقامة والوسطية والاعتدال. وهذا حقاً من غرائب الدنيا وعجائب الدهور.

وعلى أية حال، فإنّ مَنْ يبحث عن منهج عمليّ - ليسيّر على أساسه في طريق الإنابة إلى الله والوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة - سيجد أمامه طرقاً متعددة كلّ واحدٍ منها له روائده ومريدوه. وكلّ منهم يزعم أنّ الحقّ عنده وأنّ صراطه هو الصراط المستقيم. فبينما ترى هناك مَنْ يختار التشدّد وسيلةً، والتضييق على النفس سبيلاً - بحيث يلتزم الإعراض عما أحلّ الله لنا في دنيانا والتقشف في الحياة والانزواء عن الناس - تجد في المقابل مَنْ يحاول إعطاء صورة متحركة عن الدين، فيجعل الأولوية لتمشية الأمور الدنيوية بحسب ما يراه، فتراه يتنازل عن بعض المبادئ والأحكام، من أجل إعطاء صورة

مساحية عن الدين؛ ليرضي نفسه التي اقتنعت مسبقاً بأنه يلزم أن لا يتعارض الدين مع مشتهيات النفس، وأن لا يسدّ عليها باباً من أبواب الدنيا، أو ليرضي الآخرين الذين يصوّرون الدين على أنه نوع من أنواع التعصّب، ومظهر من مظاهر التسلّط وكبت مواهب الجمال، ليكون مجالاً من مجالات التعدي على حقوق الإنسان، فيحاول البعض دفع هذه المزاعم بمحاولة إعطاء صورة مساحية تتلاءم مع قناعات أولئك، وتتناغم مع ما يقررونه على وفق مشتهياتهم.

وبين هؤلاء وأولئك مراتب عديدة لمحاولات فهم الدين الحنيف، أو اقتناص صورة مطابقة للقناعات المسبقة من مصادر التشريع الإسلامي. ونحن في الحقيقة محظوظون جداً من هذه الناحية؛ حيث وفقنا لاتباع أهل البيت (عليه السلام)، فإنهم ملأوا الساحة الإسلامية بالدرر الثمينة على مستوى دعم الجانب العقدي والثقافي من ناحية، وعلى مستوى التوجيه العملي في سبيل تهذيب النفس والوصول إلى المبتغى من الحصول على الكمال بمراتبه المتعددة والاتصاف بالتقوى والورع والتحلي بمكارم الأخلاق من ناحية أخرى.

ومن أهمّ مميزات مذهب أهل البيت (عليه السلام) من هذه الناحية أن أئمتهم (عليهم السلام) متعدّدون توارثوا العلم الرباني والمعرفة الإلهية وما استتبعه من تجسّد لأروع صور التقوى والورع على المستوى العملي من مدينة العلم (عليه السلام) وعبر بابها أمير

المؤمنين عليه السلام ^(١)، فكانت فرصة ترسيخ مبادئ الإسلام وتشديد منظومة معرفية وتجسيد تلك التعاليم عملياً أكبر من غيرها في المذاهب الأخرى، خصوصاً وأنك إذا تتبعت سيرتهم عليهم السلام فستجدها واحدة من هذه الناحية. وإذا كانت هناك بعض الاختلافات بحسب مقتضيات الظروف والأحوال، فهي لا تتعدى أن تكون تطبيقات مختلفة لتعاليم واحدة، كما يحصل ذلك بلحاظ الشخص الواحد عادةً. وطبيعي هذا مع الإغماض عما نعتقه نحن من عصمتهم عليهم السلام، فما ذكرناه آنفاً يلمسه كلُّ مُنصفٍ وباحثٍ عن الحق والحقيقة، وإن كان بمنظار بحثه قد عزل مسألة عصمتهم عن الحسابات، وبحث في تراثهم الفكري وسيرتهم العملية كما يبحث في سيرة أيِّ شخصية تاريخية أخرى، فلو تخلّى عن مبدأ الانحياز ونزع ثوب التعصّب فسوف لا يسعه إلا أن يقف إجلالاً لهم ولما تركوه لنا من تراث، ولأدرك أنهم عليهم السلام قد سبقوا وقتهم وتقدّموا على أجيالهم بمراتب ومراتب.

ونحن هنا سنحاول أن نستخلص من هذا التراث العظيم خطوطاً عريضة، تمثل إطاراً عاماً لبرنامج عمليّ، يرسم لنا الخطوات العملية التي يمكن أن يصل بنا تطبيقها إلى برّ الأمان، ونيل مراتب الكمال، والحصول على مرضاة ربّ العباد، ونيل السعادة في الحياة الدنيا، ومن بعد ذلك في الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم.

(١) ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «أنا مدينةُ العلمِ وعليّ بابها، وهل تُدخِلُ المدينةَ إلا من بابها». الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص ٣٤٣.

الإطار العام للبرنامج العملي

يوجد في الشريعة الإسلامية تأكيد واضح على المستوى العملي للفرد والمجتمع؛ ولذلك تجد عندنا حصيلة جيدة - وتراثاً عظيماً من التوجيهات العملية والسلوكية - لا تجد لها نظيراً في الشرائع والسُنَنِ الأخرى، فلا تألُفُ جانباً من جوانب الحياة الفردية أو الاجتماعية إلا وترى للإسلام فيها أحكاماً وتوجيهاتٍ وآداباً ونصائحَ، ولا يعدُّ مبالغاً مَنْ يزعم أنَّ أحكامَ شريعة الإسلام هي عبارة عن برنامج عملي لتقويم وتنظيم سلوك وعَمَلِ الأفراد والمجتمعات.

هذا، ولكنَّ ينبغي الالتفات إلى أنَّ هناك صنفين من الأحكام في الشريعة يلزم التفريق بينهما، فبعض تلك الأحكام لوحظ فيه المستويات الدُّنيا التي يمكن أن تكون عليها أعمالنا، بينما بعضها الآخر لوحظ فيه المستويات العُليا من الكمال والمقبولية.

فمثلاً على صعيد الصلاة - التي هي من العبادات - نرى أحكاماً تخصها، من قبيل: اشتراط الطهارة، والطُمَأْنِينَة، واستقبال القبلة فيها، ووجوب التكبير، والقراءة، والركوع، والسجود فيها، وهذه الأحكام ترسم لنا الحدود التي يمكن أن تقع فيها الصلاة في أقل مراتبها من الكمال والمقبولية، بحيث لو أخلَّ المكلف بشيء منها فلا تتحقق الصلاة الصحيحة أصلاً. بينما أحكام من قبيل: استحباب إتيان الصلاة في أول وقتها، واستحباب تحقيق الحضور

القلبي فيها، والإتيان بها جماعةً، والتأكيد على التعقيبات من أذكار وأدعية ونحو ذلك لوحظت فيها مراتب عُليا من الكمال والمقبولية.

وهكذا في عقد البيع - الذي هو من المعاملات - مثلاً نجد أحكاماً من قبيل اعتبار أن يكون بالاختيار لا بالإكراه، وأن يتم تعيين المبيع والشن، وأنه إذا تم فلا يمكن لأحد الطرفين التراجع عنه من دون أن يرضى الطرف الآخر، ونحو ذلك مما لوحظ فيها المستويات الدُّنيا لوقوع هذه المعاملة صحيحةً، ولكن في الوقت نفسه تجد له أحكاماً أخرى روعي فيها مستويات أعلى من ذلك، من قبيل ما إذا طلب أحد الطرفين الفسخ والتراجع عن البيع، فصحيح أن الطرف الآخر لا يكون مُلزماً بالاستجابة له، ولكن ذلك أمر مستحب تحثُّ عليه الشريعة.

وهكذا على مستوى الأخلاق والسلوك وآداب التعامل مع الآخرين، فمثلاً الشرع لم يجعل طاعة الوالدين واجبة، وإنما حرَّم ما يؤدي إلى أذيتها، فلو أمر الأبوان ولدهما بدخول كلية معينة مثلاً، فلا يجب عليه طاعتهما في ذلك إذا كانت مخالفتها لا توجب أذيتهما^(١)، ولكن في الوقت نفسه جعل - أي: الشرع - مداراتهما والسعي إلى إرضائهما وإسعادهما أمراً محبباً قد أكد عليه كثيراً.

ومفاكهة الزوجة وملاطفتها كذلك ليست لازمة بالمعنى الفقهي للزوم والوجوب، ولكن الشارع أكد عليها أشدَّ تأكيد.

(١) الخوئي، أبو القاسم، صراط النجاة (بتعليق الميرزا التبريزي): ص ٤٥٥.

وما نريد قوله هنا هو: أَنَّهُ ينبغي للمؤمن أَن لا يقصر اهتمامه على المستوى الأدنى من أحكام الشريعة؛ فَإِنَّهَا إِنَّمَا شُرِّعَتْ لَتَبْيَانِ واقع الحال، وما يمكن أَن يؤثرَ على صحة العبادة أو المعاملة، ومراعاةً لمستويات الناس المختلفة، وبعضُها شُرِّعَ لفضّ النزاعات وإلزام المتخاصمين لتقول لكلّ منها: إِنَّ هذا لك وهذا لخصمك، فهي جاءت لتحقيق العدل، وتقويم النظام العامّ وتسيير الأمور، رغماً على مَنْ له قابلية على التعدي على حقوق الآخرين ولحفظ تلك الحقوق. فينبغي للمؤمن أَن يتنزّه عن أَن يكون في تلك المقامات، ولا يناسبه إلا أَن يهتمّ بما يعنيه ممّا يرتقي به في درجات العلياء، وتحصيل مكارم الأخلاق.

وعلى آية حال، فيمكننا القول: إِنَّ حصيلة تلك الأحكام والآداب والتوجيهات السلوكية يتمثّل في ما هو ما موجود في الرسالة العملية التي يكتبها الفقيه، والكتب الأخلاقية المعتمدة.

هذا، ولكن من الواضح أَنَّهُ لا تيسّر الاستفادة المثلى من بعض هذه الكتب - كالرسائل العملية وبعض كتب الأخلاق - لكلّ أحد لعوامل عديدة، لعلّ أهمها: صعوبة مطالبتها، ودقّة تعابيرها؛ ولذلك فلا يصحّ الإكتفاء بتوجيه القارئ إلى قراءتها وإرشاده للاستفادة منها بشكل مباشر.

هذا مضافاً إلى أَنّ مجموع ما موجود في هذه الكتب هو عبارة أخرى عمّا تُوصّل إليه من أحكام وتعاليم الشريعة الإسلامية، تلك الشريعة التي لم تدع ميداناً إلا واقترحت، فبالتالي يكون الشخص أمام منظومة مترامية الأطراف

ومتشعبة الفروع، فليس من الإنصاف تركه وحيداً من دون الأخذ بيده وإرشاده إلى كيفية الاستفادة عملياً من تلك التعاليم والتوجيهات.

وهناك مشكلة أخرى تواجه المؤمن حينما يريد مراعاة تكاليفه الشرعية والاستفادة من الآداب والأحكام الأخلاقية، وعندما يتوجه إلى خياراته في سلوكه العملي، ليختار ما ينفعه على مستوى الارتقاء في مراتب الكمال وتنمية شخصيته عملياً، وهي مشكلة ضيق وقته وسط تلك المزاومات التي تسببها مقتضيات المعيشة وظروف العمل وما تُمليه عليه لوازم العلاقات الاجتماعية، من التزامات وواجبات تُجابه عائلته ومجتمعه.

فلأجل ذلك كله لا بدّ من وجود برنامج عمليّ ينظّم أمور الشخص، ويجعله يغتني وقته، ولا يشتت جهوده، مضافاً إلى أنّه يقلّل فرص الانحراف عن الخطّ العام والصراط القويم الذي سنّه لنا الله سبحانه، وشيّد بإرساله خير خلقه ﷺ، وحظي برعاية الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام، ثمّ انتقلت المهمة إلى علمائنا الأمناء، فبذلت في سبيل المحافظة على الخطّ القويم الذي يمثل ما جاء به نبينا الأكرم ﷺ من شريعة سمحاء جهوداً عظيمة، وقُدّمت في ذلك توضيحات جسيمة يكفي للاطلاع عليها إطلالة بسيطة على الكتب التي تعني بسيرهم العلمية والعملية المشرقة^(١)، حتى وصلت لنا الشريعة عبر تلك السلسلة الذهبية من الحفظ.

(١) أنظر مثلاً: الأمين، محسن، أعيان الشيعة.

وبعد هذا كله هل يبقى عذر لمن يُغمض عينيه فيتَّبِعَ كُلَّ مَنْ هَبَّ ودَبَّ من لا يُعرف عن سيرته وتوجُّهاته شيء، ولا همَّ له إلا تسقيط الآخرين، وكسب تعاطف الناس معه بواسطة الإقبال عليهم بما تشتهي أنفسهم؟! والنفوس تتوق للتغيير وتُحِبُّ شعارات الانتفاض في وجه المألوف، ولا سيَّما طبقة الشباب، الذين اجتمعت فيهم مع تلك الخصلة صفة أخرى وهي قلة التجربة في الحياة، ولذلك يحاول أصحاب التوجهات الضالة التأكيد عليهم وجعلهم وقوداً لخططهم الشيطانية.

ونحن هنا نريد القيام ببعض ذلك الواجب لنقدِّم نموذجاً عن البرنامج العملي الذي ينبغي لكلِّ شخص أن يُعِدَّه لتنظيم أموره، ولكنَّ حيث إنَّ ظروف الأشخاص تختلف من فردٍ لآخر، فلا بدَّ من مراعاة ذلك والاقتصار على الإطار العام لما يناسب أن يشتمل عليه هذا البرنامج، مع ترك مساحاتٍ لخيارات الأشخاص التي يراعون فيها ظروفهم الخاصة بكلِّ واحدٍ منهم.

وليس هناك ما يُمكن أن يكون منطلقاً في هذا المجال أفضل من كلام أهل البيت (عليه السلام)، وأنسب ما وردنا عنهم من ذلك قول الإمام الكاظم (عليه السلام): «اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعاتٍ: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الإخوان والثقات الذين يُعرِّفونكم عُيوبكم ويُخلصون لكم في الباطن، وساعةٍ تَحْلُونَ فيها لِلذَّاتِكُمْ في غير مُحَرَّم. وهذه الساعة تَقْدِرُونَ على الثلاث ساعات»^(١).

(١) الصدوق، علي بن بابويه، فقه الرضا: ص ٣٣٧.

والمعنى المقصود في هذه الوصية: اجعل وقتك أربعة أقسام: قسماً للمناجاة والعبادة، وقسماً للعمل وتحصيل الرزق، وقسماً للعلاقات الاجتماعية والتزاماتها، وقسماً للراحة والترويح عن النفس. ونحن سنتحدث على وفق هذا الإطار العام:

أولاً: وقت العبادة ومناجاة الله

والمقصود من المناجاة المذكورة في الفقرة الأولى من الحديث العبادة بشكلٍ عامّ. ولا بد لنا كأفراد من ترتيب أمورنا العبادية بما يتوافق مع إمكانياتنا الجسدية والنفسية، وظروفنا المحيطة بنا، كالتزاماتنا تجاه عائلتنا وعملنا، ومسؤولياتنا الاجتماعية، وحيث إنّ ذلك يختلف من شخص لآخر فليس بإمكاننا إعطاء منهج عباديٍّ محدّد، ولكن يمكننا مواصلة الحديث وفق أطر عامة لا تتقاطع مع الظروف الخاصة لكل الأشخاص أو أغلبهم. وليكن حديثنا ضمن نقاط:

١. استثمار الأوقات والأماكن المخصصة: فكما نعرف هناك أوقات عبادية تتكرر علينا كل يوم كالأوقات الثلاثة للصلوات اليومية، أو كل أسبوعٍ كغُسل الجمعة وصلاتها، أو كل شهر كصلاة أول الشهر، أو كل عام كصيام شهر رمضان وزيارة الأربعين وإخراج الخُمس في رأس سنته مثلاً. فينبغي للمؤمن أن يحرص على وضع برنامجٍ عباديٍّ ويلزم نفسه على الالتزام به، فإيراعي فيه أهمية استثمار تلك الأوقات. فمثلاً: يُلاحظ مشاغله وظروفه

الخاصة؛ ليرى أيَّ أوقات الصلاة الثلاثة يمكنه استغلاله بنحوٍ أكثر من الوقتين الآخرين، فيجعله وقتاً للدعاء وقراءة القرآن مثلاً، ولربَّما وجد أنَّ المناسب لظروفه توزيع تلك العبادات على الأوقات الثلاثة بالتساوي. والمهم هو أن لا يكون أحدنا فوضوياً حتى في عباداته اليومية، بل لا بد من التزام برنامجٍ يلزم نفسه باتباعه بشكلٍ منتظم، فإنَّ لنفس المواظبة والالتزام بالعبادة فوائدٍ مهمَّة يلمسها الشخص مع المداومة والاستمرار بشكل واضح.

وهكذا بلحاظ الأعمال العبادية الأسبوعية، كقراءة دعاء كميل وزيارة الحسين عليه السلام ولو عن بُعد ليلة الجمعة، وغُسل الجمعة وصلاتها، وحضور مجلسٍ وعظٍ وتثقيفٍ مثلاً وغير ذلك، فيُحدِّد أوقات كلِّ ذلك، ويؤكد على نفسه التعهُّد بالالتزام بتلك الأعمال في أوقاتها.

وهكذا بلحاظ الأعمال العبادية الشهرية أو السنوية، فكم هو جميل أن ترى شخصاً في ريعان شبابه قد حدَّد له رأس سنة خمسية ينتظره ليحاسب نفسه ليرى إن كان هناك حقٌّ شرعي في أمواله وإن كانت قليلة، وكم هو رائع أن تجد شخصاً قد هيأ الأمور المادية وغيرها لأيامٍ محرم الحرام أو الزيارة الأربعينية، وهو ينتظر قدوم موسم إبداء الحزن وإحياء شعائر الذكر الحسيني ليكون له نصيبٌ مما يُرجى من الثواب العظيم على ذلك.

هذا من ناحية الوقت، وهكذا من جهة الأماكن، فهناك أماكن خاصة لبعض العبادات، وأخرى يُستحبُّ ويفضَّل الحضور فيها، فكَذلك ينبغي

للمؤمن أن يجعل له خطة لترتيب أموره من هذه الناحية، وبحسب ما يراه مناسباً لظروفه وانشغالاته. فيجعل له وقتاً للذهاب إلى المسجد إما يومياً، أو كلّ يومين، أو على الأقلّ في الأسبوع مرة مثلاً. وهكذا ارتياد العتبات المقدسة، فإن كان قريباً منها خصّص لذلك وقتاً كلّ يوم أو يومين مثلاً، وإن كان بعيداً نسبياً فكّل أسبوع، وإن كان أبعد من ذلك فيحرص على أن لا تطول مدّة غيابه عنها. وما أحسن أن يكون للمرء مكاناً لعبادته في بيته، ولو بطرح سجادة الصلاة في مكانٍ من البيت؛ ليكون خاصّاً به لعبادته^(١).

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ للعبادة معنيين: العبادة بالمعنى الأخصّ، وهي كلّ ما شرّعه الله بحدودٍ معيّنة لناقي به مقترناً بقصد القربة منه تعالى - فلا يصح من دون ذلك - كالصلاة والصوم والحجّ ونحو ذلك. والعبادة بالمعنى الأعمّ وهي كلّ ما نقصد به القربة وإن لم يكن قصد القربة شرطاً في تحقيقه، فيشمل ذلك كلّ أعمالنا التي يمكن أن نثاب عليها لو أتينا بها لوجهه تعالى وبقصد القربة منه، فيشمل أعمال التسوق للعيال والكلام الطيب مع الآخرين ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة، بل يشمل حتى مثل النوم لأجل حصول القوة على العبادة أو على العمل، وممارسة الرياضة للحصول على النشاط من أجل أداء واجباتنا العبادية أو الحياتية الاعتيادية، فيشمل كل ذلك

(١) وقد وردت في استحباب اتخاذ مكانٍ من البيت مسجداً رواياتٌ عن أهل البيت (عليه السلام). أنظر:

ونحوه ما دام قُصِدَ به وجه الله سبحانه. فإذا كان الأمر كذلك، فمن الممكن إذن أن نكون في جميع أوقاتنا أو أغلبها مشغولين بالعبادة، وذلك إذا ما استحضرنّا قصد القربة وأن تكون أعمالنا خالصةً لوجه الله تعالى في جميع أعمالنا.

ويمكن للشخص أن يرجو الاستعاضة عن استحضار النية أثناء الإتيان بالأعمال بأن يتوجه إلى الله سبحانه في بداية يومه ويطلب منه أن يتفضل عليه بأن يحتسب كل ما يأتي به من أعمال لوجهه الكريم؛ فإنَّ التعبد بمثل ذلك ما دام بنحو الرجاء من الله بأن يتفضل عليه فلا إشكال فيه وإن لم يرد فيه نص شرعي صريح.

٢. المواظبة على قراءة القرآن: ومن الضروري أن يجعل أحدنا له وقتاً لتلاوة القرآن والتدبر في آياته الكريمة في كل يوم مرة واحدة على أقل تقدير، وأن لا يترك ذلك، ولو اضطر فليقتصر على قراءة آيات قليلة، ولا يدع لنفسه مجالاً لترك هذا العمل المهم. وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا يَمْنَعُ التَّاجِرَ مِنْكُمْ الْمَشْغُولَ فِي سُوقِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ أَنْ لَا يَنَامَ حَتَّى يَقْرَأَ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَتُكْتَبُ لَهُ مَكَانَ كُلِّ آيَةٍ يَقْرُؤُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَيُمْحَى عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ»^(١). ولكي تكون القراءة مثمرة فمن الأفضل اختيار نسخة من المصحف تشتمل على شرح وتوضيح لبعض المفردات الغامضة.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦١١.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في فضل قراءة القرآن: «اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى أو نقصان من عمى»^(١).

ولا ينبغي الغفلة عن مراعاة الجانب التطبيقي لما يتلوه، فليتأمل في كلام الله سبحانه ويقارن نفسه به، لئلا يصدق عليه أنه اتخذ آيات الله هزواً كما هو المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

٣. المواظبة على الدعاء: فالدعاء هو أفضل العبادة^(٣)، وسلاح المؤمن وعمود الدين^(٤)، وشفاء من كل داء^(٥). والسبب في ذلك واضح؛ فإن الإنسان بالتوجه إلى الله سبحانه والتضرع والتوسل إليه يتجسد لديه معنى العبادة والرجوع إلى الله تعالى بشكل واضح. والذي يواظب على قراءة الأدعية بانتظام يلتمس تأثير ذلك على نفسيته وبناء شخصيته، ويتحسس نمو صفة الثقة بالنفس وحصول الاطمئنان لديه.

(١) نهج البلاغة: ص ٢٥٢.

(٢) أنظر: العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١، ص ١٢٠.

(٣) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٦.

(٤) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٦٨.

(٥) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤٧٠.

وللدعاء أوقاتٌ مفضَّلةٌ وآدابٌ معينةٌ وهناك أماكن يُرجى إجابة الدعاء فيها يمكن الرجوع إلى المصادر التي تعتني بذلك للتعرف عليها، ولكن ما نريد التأكيد عليه هنا هو بعض الأمور:

منها: ضرورة المواظبة على الأدعية المخصوصة المهمة، من قبيل تعقيبات الصلوات اليومية، وأدعية الأيام، ودعاء العهد كلَّ صباح، والدعاء عند الخروج من الدار، ودعاء كميل ليلة الجمعة. ويُفضَّل أن يجعل له حدًّا أدنى من تلك الأدعية يلزم نفسه بالمواظبة عليها، وبما يتناسب وظروفه.

ومنها: أن لا تكون قراءته للدعاء مجرد قلقلة لسان، بل لا بدَّ من التفاعل مع مضامين الدُّعاء، وليصل الأمر إلى المبالغة في الإلحاح على الله سبحانه والجهر بالبكاء؛ فإنَّ لذلك أثراً عظيماً ينعكس على شخصية الفرد وسلوكياته، فضلاً عن تأثيره في الاستجابة لدعائه. وممَّا ينفع في هذا المجال اختيار ألفاظ الدُّعاء، فليُنظر الشخص إلى نفسه ليرى ما هي مقبلة عليه وتتفاعل معه ليختار دعاءً مناسباً ممَّا ورثناه عن أئمتنا الأطهار عليهم السلام، وما أعظم ذلك التراث الذي تركوه لنا، فمع بلاغة تعابير أدعيتهم وسلاستها - ورقِّي المضامين التي اشتملت عليه - نجدُ فيها تنوعاً وشموليَّةً لكلِّ ما نحتاجه، ونظرةً سريعة في عناوين أدعية الصحيفة السجادية أو كتاب مفاتيح الجنان تجد ما ذكرناه جلياً. وعلى آية حال، فلو وجد الشخصُ تفاعلاً مع دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، أو مع مقطع منه أو مجرد فقرة ينتقيها منه مثلاً فليبادر بقراءة ذلك

والتفاعل معه، وإن لم يكن ذلك في يوم عرفة؛ فإنَّ التفاعل مع المضامين هو كالرُّوح للدعاء، والاكتفاء بترديد الألفاظ من دون تفاعل كالجسد إذا نُزِعَتْ عنه الرُّوح. بل لو رأيتَ نفسك تتفاعل مع تعابيرك الاعتيادية فبادِرْ إلى الدُّعاء بما يحضرك من ألفاظ، ولا تجعل انتقاء الألفاظ حاجباً. وقد روي الإمام الصادق عليه السلام قصةً عن رجلٍ من بني إسرائيل دعا الله تعالى أن يرزقه ولداً ذكراً، وبقي يدعو ثلاثين عاماً ولا يُستجابُ له، وفي يوم من الأيام توجه إلى الله سبحانه يخاطبه قائلاً: أبعيدُ أنا منك فلا تسمعني، أم قريبٌ أنت مِنِّي فلا تُجيبني؟ فرأى في المنام شخصاً يقول له: إنَّك كنتَ تدعو الله بلسانٍ بذيءٍ وبنيةٍ غير صادقة؛ فأصلح لسانك ونيتك ليُستجاب لك. ففعل ذلك ورزقه الله تعالى الولد^(١).

أجل، يبقى للمواظبة على قراءة الأدعية المخصوصة للأوقات أو المواضع المعينة - كتعقيبات الصلوات اليومية وأدعية الأيام ودعاء كميل مثلاً - أهمية وفائدة تترتب على نفس المواظبة عليها.

ومنها: أن يجعل الإنسانُ وقته كله أو جُلَّه في الدُّعاء. ومن المؤكَّد أنَّكَ ستعترض على هذا بأنه شيء مستحيل، وهل نترك شؤون الحياة ومتطلبات المعيشة لتتفرَّغ للدُّعاء؟! لكن المقصود ليس ذلك، وإنَّما نقصد أن يعوِّدَ

(١) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٣٢٤.

الشخص نفسه على استحضار ضعفه وقلة حيلته أمام أبسط الأمور، ليلتجئ إلى الله تعالى دائماً وبشكل مستمر، ويطلب العون منه تعالى، فحينما يتوجه إلى عمله يستذكر مشاكل العمل التي يمكن أن يواجهها أي شخص، وحينما يركب السيارة يستحضر المخاطر والمواقف التي يمكن أن تواجهه، وهكذا، فيكون معنى حاجته لتوفيق الله تعالى وتسديده وحفظه وإعانتة حاضراً في نفسه، فيكون طلب التوفيق والحفظ واستعانت به تعالى موجوداً دائماً وبشكل قهري.

٤. التزام عبادة التفكير والتأمل: فمن أفضل العبادات التفكير في أمر الله، فإنه يدعو إلى الخير ويؤدي إلى العمل به^(١). وقد ورد في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «لَيْسَ الْعِبَادَةُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، إِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام: كيف أن يفكر أحدنا في أمر الله تعالى؟ فقال: «يَمُرُّ بِالْخُرَيْبَةِ أَوْ بِالْدَارِ فَيَقُولُ: أَيْنَ سَاكُنُوكَ، أَيْنَ بَانُوكَ، مَا بِالْكَ لَا تَتَكَلَّمِينَ؟!»^(٣). ومن الطبيعي فإن هذا الذي ذكره الإمام عليه السلام هو من باب المثال، وإلا فللتفكير في خلق الله مستويات مختلفة بعضها لا يناسب إلا بعض الناس، فتفكر العالم غير تفكر الإنسان العادي.

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٤.

ويمكن جعل التفكير في المجالات العلمية مصداقاً للتفكير في أمر الله تعالى والتدبر في آياته الكونية، فمن يقرأ في مجال الفضاء الخارجي وأسرار الكون وما فيه من مجرات ونجوم ومجموعات كوكبية، وكيف تكون المسافات فيها شاسعة لدرجة يصعب تصورها، لدرجة تجعل صورة النجوم الواصلة إلينا لا تعبر عن حالها في وقت رؤيتها لها؛ إذ لعل بعضها خفت وانتهى عمره فاختمى واقعاً ولكن نوره لم يصلنا إلا بعد أن استغرق ملايين السنين الضوئية، وكيف أن الأرض التي نراها واسعة جداً تُعد جزءاً صغيراً في بعض أطراف المجموعة الشمسية التي بدورها تكون جزءاً صغيراً قريباً من طرف مجرة درب التبانة، والمجرة هي واحدة من ملايين المجرات. فإذا أدرك مثل هذه المعلومات ونحوها وتفكر في عظمة الخالق وعدم محدودية قدرته، وعرج على عظيم حلمه علينا نحن الضعفاء جداً، لدرجة تجعل من فايروس لا يرى بالعين المجردة خطراً على حياتنا، ومع ذلك فهو يحلم بنا ولا يعجل لنا بالعقوبة، مع ما يصدر منا من ذنوب ومعاصي، فهو بلا إشكال يكون مصداقاً للتفكير في أمر الله. بل ويمكن لكل واحد منا أن يجعل عمله ميداناً للتفكير في أمر الله تعالى، فالذي يعمل في المجال العلمي يتأمل في المطالب العلمية وتنسيقها بنحو يعبر عن دقة في خلق العالم الذي ندرسه من جهة، وعن عظمة ما منحنا الخالق من قوة جبارة ندرسه بها تلك الدقة التي عليها العالم: ﴿سَرِيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١). هذا كله

بلحاظ الساعة الأولى التي ذكرها الإمام عليه السلام، وهي ساعة العبادة ومناجاة الله سبحانه.

ثانياً: وقت العمل وكسب المعيشة

لم تهمل الشريعة جانباً من جوانب الحياة المختلفة، وكان جانب العمل والكسب من أجل تهيئة أمور المعيشة للشخص وعائلته من تلك الجوانب، بل أولته اهتماماً كبيراً وأكدت وحّثت عليه، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «الْعِبَادَةُ سَبْعُونَ جُزْءاً، أَفْضَلُهَا طَلَبُ الْحَلَالِ»^(١)، وعن الصادق عليه السلام: «الكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢)، و«لَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُحِبُّ جَمْعَ الْمَالِ مِنْ حَلَالٍ، يَكْفُ بِهِ وَجْهَهُ، وَيَقْضِي بِهِ دَيْنَهُ، وَيَصِلُ بِهِ رَحْمَةً»^(٣) إلى غير ذلك مما ورد في مدح العمل والحث عليه^(٤). فالإسلام دين الإنسانية، لا يرتضي للشخص أن يكون سلبياً في محيطه غير مساهم في تطوير واقع مجتمعه. ف: «أَفْضَلُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»^(٥). وقد شرّع بعض الأحكام التي تُسهّم في ذلك، من قبيل أن مَنْ عَمَّرَ أرضاً وأحياها بعدما كانت خربة فهي له^(٦).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٥، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق: ج ٥، ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٥، ص ٧٢.

(٤) أنظر مثلاً: أبواب كتاب المعيشة من كتاب الكافي: ج ٥، ص ٦٥ وما بعدها.

(٥) أنظر: الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٤٨.

(٦) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٥، ص ٢٧٩.

وعلى هذا؛ فالعمل والتكسُّب من أجل سدِّ حاجة الشخص وعياله - وهكذا المساهمة في تطوير واقع المجتمع، وإعمار البلاد مع كونه شيئاً ضرورياً تفرضه مقتضيات الواقع، فإنَّه - يمكن أن نجعله عبادةً تقربُّنا إلى الله تعالى، ووسيلةً لبناء ذاتنا وإصلاح أنفسنا؛ وذلك حينما تكون نيَّتنا عندما نتوجَّه إلى العمل وأثناءه خالصةً لله وطَّيبة بقصدنا إغناء أنفسنا وعيالنا عن الحاجة إلى الغير، وإبعاد أنفسنا وذوينا عن أن نكون عالةً على المجتمع، وأن نُسهِم في نفع الآخرين وبناء بلداننا، ونحرص على أن نكون مخلصين في عملنا مهما كانت الظروف المحيطة بنا، فلو كان الغشُّ في مجالات العمل هو السائد، والفساد الإداري في دوائر الدولة مثلاً كان مستشرياً، فينبغي أن لا يكون ذلك عذراً مقنعاً للشخص في أن يرتضي لنفسه أن يكون جزءاً من ذلك الواقع السيِّئ، أو يجعله مسوَّغاً للتنازل عن مبادئه وثوابته الدينية والأخلاقية.

ثالثاً: وقت معايشة الإخوان والتُّقات

من الواضح أن الإسلام لم يُغفل الجانب الاجتماعي، وراح يؤكد على عدم الانزواء بأن يعزل الشخص نفسه عن المجتمع، فيخالف في ذلك ما فُطر عليه من الميل إلى الاختلاط ومعايشة الناس. فالإنسان اجتماعيٌّ في طبعه، لا يمكنه الاستغناء عن مخالطة الناس، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَغْنِي عَنِ النَّاسِ حَيَاتُهُ»^(١).

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٦٣٥.

كما أن علاقاتنا الاجتماعية واختلاطنا بالناس ومعاشرتنا لهم تكون على نحوين:

النحو الأول: ما يحصل رغماً عنّا ونضطر إليه بسبب ظروف العمل، وتنقلاتنا السكنية، والسعي لسدّ احتياجاتنا المعيشية، ونحو ذلك.
والنحو الثاني: ما يحصل باختيارنا كمخالطتنا لأصدقائنا الذين نختارهم مثلاً.

وفي النحو الأول تشتدّ معاناتنا عادةً، ويزداد احتمال مواجهتنا للصعوبات وابتلائنا بمعاشرة أناس لسنا على وفاق معهم في التوجهات، ولا تناغم لنا معهم في الأذواق، ولا يقاربوننا في السلوكيات. وهنا لا بد من أن يكون تعاملنا مع مَنْ حولنا ضمن مساحة محدودة بحدّين، أعلاهما يتمثّل بمفاد قول أمير المؤمنين عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُحَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عَشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ»^(١)، والمقصود: أنّنا ينبغي مخالطة الناس ومعاشرتهم بالمعروف والإحسان، وأن يكون المرء جميل السجايا، لطيف الجانب، خفيف الظل كما يقال، بحيث يترتب عليها ما صرّح به الحديث من بكاء الناس عليه لو مات، والاشتياق إلى لقائه لو غاب عنهم؛ بسبب دماثة أخلاقه، وطيب معشره. والحد الآخر - والذي يمثل الحد الأدنى لمساحة التعامل مع الناس - يتمثّل بمفاد الحديث النبوي الشريف: «اخْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّنِّ»^(٢)،

(١) نهج البلاغة: ص ٤٧٠.

(٢) الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٥٤.

والمعنى: أَنَّهُ ينبغي على المرء أَن يجعل سوء الظنّ هو القاعدة في مَنْ لا يعرفه، لكي يُحافظ على نفسه وماله وعرضه. ولكن هذا لا يعني أَنَّهُ يسوغ لنا الحكم على الذين لا نعرفهم بأنهم سيئون وليسوا أهلاً لثقتنا بهم ونحو ذلك، وإنّما المقصود أَنّا على مستوى التعامل معهم ينبغي التحفظ والاحتراز، وليس من الصحيح أن نستأمن مَنْ لا نعرفه على أنفسنا وأعراضنا وأموالنا وغير ذلك؛ بحجة أَنَّهُ لا يصح إساءة الظن بالناس، ولكن في نفس الوقت ينبغي عدم اتهامهم أو الحكم عليهم بسوء ونحو ذلك، فالذي لا يصح هو الحكم بسوئهم والتعريض بهم أمام الآخرين، أو إشعارهم بما يسبب لهم الأذى، لا الاحتراز منهم والتحفظ على مستوى التعامل معهم. هذا على مستوى ما نضطر إليه من المخالطة للناس.

والنحو الثاني من تلك العلاقات - أي: ما كانت المخالطة والمعاشرة فيه هي باختيارنا كما في الأصدقاء فإنّنا نختارهم بإرادتنا - فالحديث الشريف الذي جعلناه منطلقاً لنا في تقسيم أوقاتنا والإطار العام للبرنامج العملي كان نظره إليه، حيث قال: «اجْتَهِدُوا فِي أَنْ يَكُونَ زَمَانُكُمْ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ... وَسَاعَةُ مُعَاشَرَةِ الْإِخْوَانِ وَالثَّقَاتِ الَّذِينَ يُعَرِّفُونَكُمْ عُيُوبَكُمْ وَيُخْلِصُونَ لَكُمْ فِي الْبَاطِنِ...»، وتراه يؤكّد على ضرورة أن تكون هذه الساعة مع الإخوان الثّقات، وعلى أن تكون هذه الساعة - مع كونها للاستراحة والمفاكهة - ساعة استثمار من جهة أن يكون اختيارنا للإخوان والأصحاب الذين يهّمهم أمرنا، فإن وجدوا فينا عيباً صارحونا، وإن رأوا فينا انحرافاً قوّمونا. ومن الواضح

أنَّ الأمر المهم الذي يمتاز به هذا النحو من العلاقات هو كون الأمر في بدايته بيد الشخص نفسه، فهو يحدّد من البداية أصدقاءه أو شركاءه في العمل، كما لو كان يشاركهم بتجارة مثلاً، أو مرافقيه الذين يرافقهم في السفر، أو جلساءه الذين يسامرهم ونحو ذلك. وعليه فتتوجه إليه المسؤولية في اختيار الأصحاب المناسبين، فينبغي أن يكون اختياره مبنياً على أسس صحيحة، لا أن يترك الأمر للصدفة مثلاً، أو أن تكون حساباته مبنية على أسس خاطئة.

رابعاً: وقت الانشغال بالملذّات المحلّة

من منطلق واقعية الإسلام في نظره للحياة، تجد انعكاس هذا الشيء واضحاً على مستوى أحكامه وتعاليمه؛ فحيث إنّ الإنسان مفطوراً على حبّ الشهوات^(١)، وإنه بحاجة إلى الراحة والابتعاد عن أجواء العمل والجدّ والخوض في الصعوبات وتفاصيل الحياة المتعبة؛ فهو بحاجة إلى تخصيص وقت لراحته ليزيل فيه آثار ما لاقاه في يومه، وليستجيب إلى ما تدعو إليه فطرته السليمة من اللذائذ التي حلّ لها له الله.

ولهذا نرى الإمام عليه السلام لم يهمل ذلك في حديثه، وجعل الساعة الرابعة التي ينبغي للمرء أن يحرص على جعل حصّة من وقته لها هي ساعة الخلوة للذة، فقال: «... وساعةٍ تخلون فيها للذّاتكم في غير محرم».

(١) قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْضَكَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَابِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. آل عمران: ١٤.

ونلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام أكَّد على أنَّ لا تشتمل ساعة الخلوة للذات على ارتكاب المحرمات؛ فإنَّ هذه النقطة هي من الأمور الحسَّاسة التي تختلف فيها الأذواق، وتضطرب فيها الآراء، فتجد هناك تيارات تمثل في مسلكها جانب الإفراط، وبعضها الآخر يمثل جانب التفريط من هذه الناحية. فبينما نرى هناك مَنْ يدَّعي بأنَّ الإسلام لم يُعطِ أهميةً للأُمور الدنيوية ولم يَجْبِد للعباد التَّنعُّم بملذَّات الدنيا، بل يحثُّ على الزهد والتَّقشف في أمور الحياة والابتعاد عن كلِّ زينة ولذَّة، نرى أنَّ هناك مَنْ يزعم أنَّ الدين لا يحرِّم التَّنعُّم بالملذَّات مطلقاً، ويتشبهون بعبارات جميلة في تركيب ألفاظها ذات مضامين تتلففها الأنفس بالمقبولية، من قبيل: إنَّ الإسلام لا يدعو إلى الابتعاد عن الحياة، وأنَّ الله جميل يُحِبُّ الجمال، فيطبقونها بحسب ما يتوافق مع مسلكهم ويتحد مع أهوائهم، فيخوضون في المحرمات تحت غطاء أمثال هذه الدعاوى والعناوين. ولكن الحق هو أنَّ الإسلام دين الوسطية والاعتدال، فهو لم يُهمَل حاجة الإنسان إلى الراحة والدَّعة، وميله لإشباع رغباته وشهوته من جهة، كما أنَّه لم يغفل الجانب الآخر وهو المحافظة على وقار المؤمن وعدم مبالغته في هدر الوقت بالأمور غير النافعة وإبعاده عن الأمور العبيثية، أو الاستغراق في الشهوات، ومتابعة النزوات، ونحو ذلك، فأباح الاستمتاع بالملذَّات أو الركون إلى الراحة ما دامت لا تستلزم ارتكاب شيء من المحرمات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١).

ثم يقول الإمام عليه السلام بعد ذلك: «وبهذه الساعة تَقْدِرُونَ على الثلاث ساعات». تتجلى واقعية الإسلام بشكل واضح، حيث إنَّ المقصود هو: أنَّه لولا أن تجعلوا لكم وقتاً للراحة والتمتع بما أحله الله لما استطعتم أن تؤدُّوا حقَّ الأوقات الثلاثة الأخرى - وقت العبادة، ووقت العمل، ووقت المعاشرة والالتزامات الاجتماعية - وهذا شيء نلمسه في حياتنا جميعاً كما هو واضح. وبهذا يتضح أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يريد منا أكثر من الإنابة إليه، والركون إليه، والإذعان بالعبودية له على وفق ما رسم لنا من حدود، وقد تكون تلك الحدود بالضد من رغباتنا كما قد تكون على وفقها، وليس بالضرورة أن تكون تكاليفه لنا وأوامره مشتملة على الضغط والتضييق علينا، فهو كما يريد منا أن نتعبد إليه فهو يريدنا أن نراعي مقتضيات طبيعتنا البشرية، ولكن بشرط عدم تجاوزنا للحدود الشرعية التي رسمها لنا. وهذا يعني بالتالي أنَّه بإمكاننا أن نتعبد لله تعالى بما فيه راحتنا وبإشباع شهواتنا المحللة، ونتقرب إليه بذلك.

نصائح عامة

وبمناسبة الحديث عن البرنامج العملي للفرد نرى أنَّ من المناسب ذكر بعض النصائح العامة التي نستفيد منها من النصوص الشرعية - والتي تمسُّ الجانب العملي - وتُعَدُّ تراثاً توجيهياً في مقام السلوك العملي للفرد. وفي الحقيقة، فإنَّ الباحث في هذا المجال يجدُّ لآلئ وجواهر في أحاديث أهل البيت عليهم السلام ليست موجودة في كلام غيرهم، حتى ممن كان مختصاً في مجال

التنمية البشرية، أو علم النفس، أو علم الاجتماع، وإذا وجدت شيئاً من ذلك فلائمتنا عليه السلام السَّبق في هذا المجال.

وعلى كُلِّ، فإنَّنا لو أردنا أن نستوعب كل ما جادوا عليه السلام به علينا في هذا المجال لخرجنا بمؤلَّفٍ كامل وكبير، ولكنَّا - ومن باب أنَّ الميسور لا يُترَكُ بالمعسور - سنذكر بعض تلك الدُّرر، فاخترنا منها المهم والنافع في المجال العملي:

١. كُنْ وَسْطِيًّا وَوَاقِعِيًّا

فالإسلام لا يدعو إلى العزوف عن الحياة والاعتزال عنها والانشغال عمَّا يقتضيه العيش في الحياة الدُّنيا، ف (لا رَهْبَانِيَّةَ في الإسلام) كما جاء في الحديث النبوي الشريف^(١)، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٢). فلا بدَّ من الموازنة بين مراعاة ما يقتضيه العيش في الحياة الدنيا وما يقتضيه مراعاة أحكام الدين وتقديم العمل الصالح للحصول على السعادة في حياتنا الأخرى. ومراعاة الأمرين ليس شيئاً مستحيلاً؛ إذ لا تقاطع بينهما، فالدين لم يأت ليهمل الحياة الدنيا أو ليحشنا على

(١) أنظر: القاضي المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام: ج ٢، ص ١٩٣.

وجاء في مجمع البحرين: ج ٢، ص ٧٥: الرهبانية: ترهبهم في الجبال والصوامع وانفرادهم عن الجماعة للعبادة.

(٢) الأعراف: آية ٣٢.

العزوف عنها، وقد ورد عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قوله: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاَعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا». فليس من المقبول أن يترك الإنسان بناء دار ليسكن فيه هو وعائلته مثلاً لأجل أنه قد يموت قبل ذلك، أو لا يتوجه إلى محل عمله لأجل التفرغ للعبادة على اعتبار أن العمل إنما هو لأجل الدنيا التي ستزول حتماً، بل لا بد من الموازنة، وإن كانت الأولوية للعمل للآخرة لأنها هي الحياة الأبدية، ولكن حاجتنا الدنيوية واقع حال بالنسبة لنا فلا بد من مراعاتها وإعطائها حقها بما سمحت به الشريعة. على أن الشريعة جعلت العمل - ونحوه من الأمور التي نحتاج إليها في حياتنا - نوعاً من أنواع العبادات بمعناها الواسع.

نعم؛ لا مانع من الاعتزال للتعبُّد والتفرُّغ للتفكير والصلاة والدعاء والتضرُّع، بل ذلك من الأمور المحبَّبة في الإسلام، ولكن بشرط أن يكون ذلك بشكل مؤقت ولا يزاحم سير حياته الشخصية الاعتيادية أو نظام المجتمع عموماً؛ ولذلك فقد شُرِّعت في الإسلام بعض العبادات التي تتجسَّد بالاعتزال والتفرُّغ للتعبُّد والتضرُّع إلى الله تعالى كالاعتكاف مثلاً^(١).

٢. لا تُحْمَلْ نَفْسَكَ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهَا

فالقلوب يُصيبها الملل كما تملُّ الأبدان وينالها التعب، كما أن لها حالات من الإقبال والانجذاب نحو الأشياء وحالات أخرى من الإدبار والنفور

(١) أنظر: الصدر، محمد باقر، الفتاوى الواضحة: ص ٥٣٥.

عنها، فينبغي لنا مداراتها من هذه الناحية، وأن نحصر على أن نأتيها في حالات الإقبال والانصراف لا في حالات النفور والإدبار، وإلا فلو لم نُدَارِ نفسنا من هذه الناحية وبقينا نصر على حملها على ما تكره أو ما لا تتفاعل معه لكانت النتائج عكسية، كما ورد ذلك في أحاديث أهل البيت عليهم السلام^(١)، وهو ثابت بالوجدان كذلك.

ولكن ليس معنى ذلك أن يكون المعيار الوحيد لتصرفاتنا هو إقبال النفس وتقبلها للأمور وعدم ذلك، وإلا فقد تركن النفس إلى ترك الواجبات الشرعية، أو تشتهي ارتكاب المحرمات مثلاً، بل المقصود مداراتها وعدم تحميلها ما لا تُطيق، كما لو ألحنا عليها بالمواظبة على المستحبات الكثيرة؛ مما ينعكس سلباً على أداء الواجبات والتكاليف أو الأعمال المهمة. وقد ورد في هذا المعنى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ لِلْقُلُوبِ إِقْبَالَاً وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ»^(٢).

وهذا لا يقتصر على الأمور العبادية، بل يشمل سائر التصرفات والالتزامات الأخلاقية والاجتماعية، فجميل أن نكون لطفاء مع الآخرين، ولكن هذا لا يعني أن اللطف ليس له آثار سلبية لو تجاوز عن حدّه، كما لو أدّت مراعاتنا لمشاعر الغير إلى أن نسترضيهم دائماً حتى لو كان ذلك يؤدي إلى

(١) أنظر: نهج البلاغة: ص ٥٠٣، وص ٥٠٤.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٣٠.

أن نكذب أو أن ندخل أنفسنا في حرج شديد مثلاً، فقد يصل الأمر إلى أن نكون كالسفينة المحملة بأكثر من طاقتها فتميل أو تغرق^(١).

٣. بادِر بالعمل فالوقت يمضي

ومن أروع ما قيل في هذا المجال ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلَانِ فِيكَ فاعْمَلْ فِيهِمَا، ويأخذانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا»^(٢). فما تمر لحظة إلا وستكون علينا حسرة لو لم نستغلها بعملٍ نافع، فالعمر هو كرأس المال للتاجر، فإذا أتلّفه بصرفه في أمور تافهة سيصاب بالندامة بكل تأكيد؛ وحتى لو حاول التعويض فما سيحصل عليه لا يكفي لرفع الندامة؛ لأنّه سيبقى يقول في نفسه: لو لم أخسر أموالِي لكانت هذه الأرباح زيادةً عليها ولتعاظم رأس مالي، وهكذا وكذلك مَنْ يهدر عمره في التفاهات فهو وإن التفت وحاول التعويض بعد ذلك فإنه لا يقدر على ذلك؛ لأنّه كان بإمكانه أن يستغل وقته السابق بما ينفع ويضيف إليه ما يكتسبه باستغلال وقته في ما يأتي. هذا لمن يحالفه الحظ فيكتب له بقاء الحياة وامتداد عمره بعد تفريطه فيما مضى، وأمّا لو لم يوهب فرصة الاستمرار بالحياة بمفاجئة الموت له فالأمر يكون أسوأ بكل تأكيد، ويكون قد فرط بفرصة الحياة التي لا تتكرر أبداً. فعلى

(١) أنظر بهذا الصدد كتاب: (لا تكن لطيفاً أكثر من اللازم) للكاتب (ديوك روبنسون) خصوصاً

المقدمة، فإنّه نافع في هذا المجال.

(٢) الآمدي، محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم: ص ١٥١.

العاقل أن يستغل كل آن ولحظة بما أمكنه، فأحوال الإنسان غير ثابتة، وإذا كان الآن متمكناً من بعض الأمور فلا يُحرز استدامة قدرته عليها، وما أجل الحكمة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الصدد: «لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَقَعَ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ، وَالْغَنَى؛ بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافًى إِذْ سَقَمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إِذْ افْتَقَرَ»^(١). ولهذا نجد أن الشريعة تحثُّ على العمل وتذمُّ الخمول والكسل. وقد روي: «الْكَسْلُ يَضُرُّ بِالْدِّينِ وَالْدُّنْيَا»^(٢)، فبالكسل والخمول يفوت الوقت، فإن فات بلا اغتنام لما ينفع فذلك هو الخسران.

٤. لَا تُشْغَلْ نَفْسُكَ بِمَا لَا يَعْنِيكَ

فقد يورط الشخص نفسه ويدخلها في مداخل فيها هلاكه، فيترك ما هو تكليفه ليذهب إلى ما لم يُكَلَّفْ به. ولذلك أمثلة كثيرة، ولعلَّ أبرزها ما يقع فيه البعض من التغافل عن حاله - وما هو مُبتلى به من أمراض أخلاقية وعيوب نفسية وما يرتكبه من معاصٍ وظلم للآخرين - فيذهب وينصب نفسه قبيحاً على الدين، ولا يكون له همٌّ غير التصدي للعلماء والصالحين بالنقد والتسقيط؛ بحجة أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكأنَّ الله خلقه ليتغافل عن تكاليفه الشخصية فكلفه بإصلاح الدين، فأغصَّ عينه عن قول أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا، فَلْيَنْتَدُ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ

(١) نهج البلاغة: ص ٥٥١.

(٢) الحرَّاني، علي بن الحسين، تحف العقول: ص ٣٠٠.

قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلِيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»^(١)، وهو لا يدري أنَّ هذا باب من أبواب الشيطان قاده إليه نفسه الأمارَّة بالسوء وأهل السوء من حيث لا يشعر. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «أُطْلُبُ مَا يَعْنيكَ وَاتْرُكُ مَا لَا يَعْنيكَ؛ فَإِنَّ فِي تَرْكِ مَا لَا يَعْنيكَ دَرَكَ مَا يَعْنيكَ»^(٢).

٥. فعل الخير ولو قليلاً أفضل من تركه

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «افْعَلِ الْخَيْرَ وَلَا تُحَقِّرْ مِنْهُ شَيْئاً؛ فَإِنَّ قَلِيلَهُ كَثِيرٌ وَفَاعَلُهُ مَشْكُورٌ»^(٣). وهو يشير بذلك إلى مسألة أخرى مهمة قد لا نلتفت إليها، فما أكثر أن نترك فعل الخير لمجرد استصغارنا له، وإن كان يسيراً، وقد لا يُكَلِّفُنَا شَيْئاً! فقد لا نهتم بالمواظبة على مثل أذكار الوضوء أو تعقيبات الصلوات مثلاً مع سهولة فعلها وعظيم ثوابها، وربّما تركنا المساهمة في بعض المشاريع الخيرية لعدم القدرة على إعطاء مبلغ جيّد، فنخجل من إعطاء القليل، ونغفل عن أنَّ عدم إعطائنا هو أقلُّ منه^(٤)، ونهمل أمر الأذكار كالاستغفار والحمد والشكر والصلاة على النبي وآله الأطهار مع سهولة

(١) نهج البلاغة: ص ٤٨٠.

(٢) الحرّاني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٢١٨.

(٣) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٧٨.

(٤) وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ، فَإِنَّ الْحُرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ». نهج

الإتيان بها. وهكذا على مستوى التخلُّق بالأخلاق الفاضلة فإنَّه ذو مراتب عديدة، ومن الواضح أنَّ يكون الشخصُ حليماً في بعض الموارد مثلاً خيراً من أنَّ لا يكون حليماً مطلقاً، أو أنَّ يكون متوسط الكرم أفضل من أنَّ يكون بمستوى أقل أو أنَّ يكون بخيلاً. ويشير أمير المؤمنين إلى هذا بقوله بعد أنَّ ذكر صفات النبي ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخُلَائِقِ فَالزُّمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا، فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخَذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرَكِ الْكَثِيرِ»^(١).

ويشمل ذلك المساهمة في المبادرات التي تستهدف بناء الفرد أو المجتمع، كالتعليم والتوعية، ولو على مستوى النشر الهادف في مواقع الإنترنت أو مواقع التواصل الاجتماعي مثلاً.

والخلاصة: أنَّه ينبغي أنَّ نُلْزِمَ أَنْفُسَنَا بِأَنَّا كُلَّمَا خَطَرَ فِي بَالِنَا عَمَلٌ صَالِحٌ فَلْنَبَادِرْ إِلَى فَعْلِهِ وَلَوْ بِالْمَقْدَارِ الْيَسِيرِ مِنْهُ: «أَفْعَلِ الْخَيْرَ وَلَا تُحَقِّرْ مِنْهُ شَيْئاً؛ فَإِنَّ قَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَفَاعِلُهُ مَشْكُورٌ»^(٢).

٦. حافظ على استمرارية عمل الخير ولو على حساب مقداره

فإنَّ للاستمرار بالعمل فوائد عظيمة يدركها الشخص كلما استمر بالعمل أكثر، ولهذا فلو دار الأمر - مثلاً - بين الإتيان بصلاة الليل بشكل

(١) المصدر السابق: ص ٥٢٦.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٧٨.

متقطع مثلاً وبين أن آتي بشيء منها كركعتي الشفع مع ركعة الوتر منها فقط ولكن بشكل مستمر، فإن الاختصار على بعضها مع الاستمرار يكون أفضل. وهكذا لو دار الأمر بين أن يجلس الأصدقاء للمذاكرة والمناقشة في الأمور التي تهم الدين أو المجتمع مثلاً نصف ساعة يومياً أو الجلوس لساعات مع عدم الاستمرار لكان الاستمرار على نصف الساعة يومياً أفضل. ولو تردد الأمر بين أن يخصص المعلم مثلاً حصة دراسية كاملة لإرشاد التلاميذ وتوجيههم مع عدم القدرة على الاستمرار والمواظبة على ذلك وبين أن يخصص دقيقتين مثلاً من كل درس لذلك، فإن الدقيقتين مع المواظبة تكون أفضل، وهكذا؛ فقد ورد في الحديث: «قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ تَمْلُولُ مِنْهُ»^(١)، و«أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَإِنْ قَلَّ»^(٢).

٧. لا يكن قولك أفضل من عملك

فقد ورد في الحديث: «الشَّرَفُ عِنْدَ اللَّهِ بِحُسْنِ الْأَعْمَالِ لَا بِحُسْنِ الْأَقْوَالِ»^(٣)، و«لَا تَكُنْ مَنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُرْجَى التَّوْبَةُ بِطُولِ الْأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الرَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاهِغِينَ»^(٤). وفي الحقيقة فإن

(١) نهج البلاغة: ص ٥٢٥.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٨٢.

(٣) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٥٧.

(٤) نهج البلاغة: ص ٤٩٧.

الوقوع في مخالفة هذه النصيحة يكون على مراتب، وأسوأها أن يأمر الشخص بالمعروف ويتركه، وينهى عن المنكر ويفعله، وهذا ما أشار إليه الله تعالى بقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)، وقديماً قيل:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِ مِثْلَهُ
عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ^(٢).

٨. لَا تُعْجَبْ بِعَمَلِكَ فَيَقِلَّ طَمُوحُكَ

فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الْإِعْجَابُ يَمْنَعُ الْإِزْدِيَادَ»^(٣). وهذا الشيء نلمسه بوجداننا ومن الأمور الواضحة؛ فإن الرضا عن النفس وإعجاب الشخص بما يفعله يؤدي إلى التوقف عن الزيادة والطموح بالتطور. هذا فضلاً عما إذا كان الفعل عبادةً فإنه قد يؤدي إلى إحباطها وذهاب ثوابها كما تقدم الحديث عن ذلك في الفصل السابق^(٤)، فنكتفي بهذا المقدار من الكلام - مع أهمية هذه النقطة - اعتماداً على ما ذكرناه هناك فارجع ولاحظه.

٩. أَخْلِصِ النِّيَّةَ فَإِنَّ مَدَارَ قِيَمَةِ الْعَمَلِ عَلَى النِّيَّةِ.

يختلف ميزان تقييم الأعمال في الإسلام عن غيره، فبينما تكون قيمة العمل في غير الإسلام على ما يترتب عليه من فوائد وثمرات مهما كان قصد

(١) البقرة: آية ٤٤.

(٢) هذا البيت من قصيدة رائعة لأبي الأسود الدؤلي. أنظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزنة الأدب ولُبُّ لبابة لسان العرب: ج ٨، ص ٥٦٧.

(٣) نهج البلاغة: ص ٥٠٠.

(٤) وذلك في ص، تحت عنوان (العقبة الثانية: حُبُّ الأنا).

الفاعل، نجد الأمر مختلفاً في الإسلام بحيث يكون النظر فيه إلى نية الفاعل وقصده، وتكون قيمة العمل على مقدار تلك النية، فقد ورد عن النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الْأَعْمَالُ ثِمَارُ النِّيَّاتِ»^(٢). فلو بادر شخص إلى بناء مشفى كبير مثلاً، فيفترض به عند تقييم فعله هذا أن يتساءل عن الدوافع التي تكون وراء ذلك؟! فلو كان ذلك لأجل خدمة أبناء مجتمعه فهو شيء جيد، وإن كان لأجل الحصول على مؤيدين وداعمين له في مواقفه الوظيفية أو الشخصية مثلاً فلا بد من توصيفه بأنّه عمل غير أخلاقي، وينبغي التحفّظ عن ارتكابه، فهذا العمل وإن كان بالحسابات المادية والتقديرية الظاهرية كبيراً وجيداً، إلا أنّه من حيث التقييم في الشريعة الإسلامية - بل وهكذا على مستوى القواعد الأخلاقية^(٣) - لا قيمة له، وقد يكون وبالاً عليه في الآخرة. وفي المقابل ربّما نرى عملاً صغيراً بالحسابات الظاهرية - كرفع الحجر أو الزجاج المهدّم عن الطريق أو تعليم جاهل أو إرشاد وتوجيه متوهم أو مساعدة مسنّ - ولكن تجده ذا أثرٍ عظيم في حسابات الشريعة الإسلامية في ما لو كان عن نيّةٍ صالحةٍ. بل ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ سبب خلود أهل النار في جهنم هو نياتهم التي كانت؛ بحيث لو خلدوا في الدُّنيا لَبَقُوا على معصية الله أبداً، وسبب خلود أهل الجنة

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام: ج ٤، ص ١٨٦.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ١٨.

(٣) أنظر: وليام ليبي، مقدمة في علم الأخلاق: ص ٣٥.

في الجنان هو أنَّ نياتهم كانت بحيث لو بقوا خالدين في الدُّنيا لاستمروا على الطاعة أبداً^(١).

هذا، ولكنَّ ينبغي الالتفات إلى أنَّه يلزم التفريق بين نظرة الإنسان إلى عمل نفسه وبين نظرته إلى عمل غيره، ونحن هنا نلاحظ المستوى الأول - أي: نظرة الشخص لعمل نفسه - وإلا فبلحاظ عمل الآخرين لا يصح التشكيك في نواياهم أو التدقيق في ذلك، بل وعلى مستوى إدارة الأعمال ينبغي تقييم الأعمال على وفق المعيار الآخر، فيقيم العمل على وفق تأثيره الواقعي والعملي على المجتمع أو البلد، فليس مقبولاً أن يتعامل المدير مثلاً بإيجابية مع مَنْ يبنى جسراً لمجرد أنَّ نواياه سليمة، وإن كان إتقان عمله ليس بالمستوى المطلوب.

١٠. صلاح العمل بالعلم

روي أنَّ جماعة ذكروا شخصاً عند النبي ﷺ وامتدحوه بكثرة العبادة والاجتهاد بالطاعة، فسألهم ﷺ عن عقله، فاستغربوا وقالوا: يا رسول الله، نُخبرُكَ عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟! فقال لهم: «إِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُكْمِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ»^(٢). وهذا في الحقيقة مما يُثبت الواقع، فكم ترى في عُمرِكَ من أشخاص يريدون عمل الخير فتأتي النتائج معهم عكسية بسبب جهلهم؟! وما أروع قول الإمام الصادق عليه السلام: «الْعَامِلُ

(١) أنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٨٥.

(٢) الحرَّاني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول: ص ٥٤.

على غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ، لَا يَزِيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا^(١). فالذي يتوجّه في مسيره إلى مدينةٍ مثلاً، إذا انحرف في سيره عن الطريق فهو يبتعد عن جهة تلك المدينة كلّما استمر بالسير بذلك الاتجاه، وهكذا العامل بلا علمٍ، فتجده يتخبط في اختياراته ومواقفه، ويذهب يميناً ويساراً بعيداً عن الصراط القويم. وفي الحقيقة فإنَّ أكثر أصحاب الاتجاهات المنحرفة والمذاهب الضالة هم مَنْ ينقصهم العلم وتقل عندهم المعرفة.

ولهذا فالشريعة تحثُّ على طلب العلم وتمدح العلم وحامله بما لم تمدح به غيره، حتى ورد في الحديث: «الدِّينُ لَا يُضْلِحُهُ إِلَّا الْعَقْلُ»^(٢)، وحينما سَمِعَ أمير المؤمنين عليه السلام بعض الخوارج يتعبدُ ويقرأ القرآن في الليل قال: «نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ»^(٣).

ويمكن للشخص أن يعرض ما فاته من طلب العلم بالاستشارة ممن يُعرف برجاحة عقله، والأفضل أن يستشير أكثر من شخص، لا سيما في الأمور المهمة، كالأمور التي قد تؤثر في العقيدة مثلاً، وأن لا يعتمد على تشخيصه فيستبدَّ برأيه. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُوبِهَا»^(٤).

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٤٣.

(٢) الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ: ص ٤٨.

(٣) نهج البلاغة: ص ٤٨٥.

(٤) المصدر السابق: ص ٥٠٠.

الخاتمة

وفي الختام نقول: إنَّ الإنسان يأتي إلى الدنيا من عوالم سابقة وفي رحلة إلى عوالم لاحقة، وهو لا يكاد يعلم من تفاصيل هذه الرحلة إلا الشيء اليسير في أفضل الحالات: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)، بل هو يأتي إلى عالمه هذا - أي: عالم الدنيا - وهو لا يفقه منه شيئاً، ثمَّ يتدرَّج في مراتب النمو الإدراكي شيئاً فشيئاً، ولكنه مع هذا النمو الإدراكي ينساق مع ما جُبل عليه من غرائز وشهوات سُلِّحَ بها تماشياً مع الاضطرار إلى العيش في عالم المادة وما يقتضيه ذلك من لوازم وتفرعات عديدة، ربَّما أمكننا إيجاد جامع لها بالقول: هو سيعتاد على الماديات ويأنس بها، وإن كان هذا لا يعني أنَّه سيغفل تماماً عما وراء الماديات من معانٍ مجردة، كلا فقد بُذرت فيه كثيرٌ من تلك الأمور في نفسه من قبيل ذات الغرائز نفسها، كالحبِّ والكُره، والشجاعة والشهامة ونحو ذلك مما تسلَّحَ به ليحفظ ذاته ويتمكن من تهذيبها، وليرقى مراتب الكمال. وبالطبع فإن جميع هذه الأمور التي تسلَّحَ بها الإنسان - المادية منها والمعنوية - هي ضرورية له، وفيها جانب إيجابي وجدت هي لأجله، ولكن هي أيضاً فيها جانب سلبي يبرز إذا لم توظَّف بشكل صحيح. وحيث إنَّ

مدرجات البشر الحسية للماديات تكون فيه منذ ولادته فتسبق مدرجاته الأخرى وجوداً ونضوجاً واكتمالاً، فتكون - بحكم انسياقه مع طبيعته الذي أشرنا إليه - هي البارزة فيه وهي المعتمدة من قبله في الغالب، فتختلط لديه الأمور وتضطرب عليه منظومة القيم وتكون الصورة عنده عن العالم الذي وجد فيه - وعن دوره هو فيه - مشوشة وغير واضحة، وبالتالي يتعد عن الغاية التي حُلِقَ لأجلها، وتكون له أهداف صغيرة يُتلف عمره في سبيل تحقيقها وهي لا توازي تلك الغاية التي وجد لأجلها، وقد يضحي ببعض المبادئ والثوابت من أجل بلوغ تلك الأهداف الصغيرة نسبياً، والأهم من هذا هو أن ذلك قد يؤدي إلى عدم بلوغ الهدف الأساسي من إيجاده وخلقه - وهو بلوغ مراتب الكمال والحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، وهدر فرصة فريدة - وهي الحياة - لا مجال لأن تتكرر.

ولأجل هذا كله، فكل فرد منّا - بني البشر - مهما كان شأنه ومقامه بحاجة إلى وقفة مع النفس لإدراك تلك الحقيقة - أعني: مسألة ابتعادنا عن فطرتنا السليمة وانحرافنا عن الطريق الصحيح الذي ينبغي سلوكه للوصول إلى الهدف الصحيح والغاية التي وجدنا لأجل بلوغها - لنعود إلى تصحيح المسار، والإنابة إلى الله تعالى من بعد ابتعادنا الشعوري واللا شعوري عنه سبحانه وتعالى؛ ولهذا فهو تعالى لم يهمل هذا الجانب الأساسي في حياتنا، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾^(١).

وحيث إنَّ من غير المعقول أن تتركنا الشريعة - والتي جاءت متكاملة ولم تُهمل حتى صغائر الأمور - من دون أن ترشدنا إلى الطريق الصحيح للعودة والإنابة إلى الله؛ فعلى مَنْ يريد العودة إلى فطرته السليمة والإنابة إلى الله بقلب سليم أولاً أن يرجع إلى الشريعة؛ لمعرفة ما رسمته لنا من طريق يلزم سلوكه في رحلة العودة والإنابة تلك. ولكن حيث هناك مساحة قد نختلف فيها في ما بيننا في فهم نصوص الشريعة، مضافاً إلى أنَّ لكلِّ واحد منّا ظروفه الخاصة به والتي لها التأثير المباشر أو غير المباشر على ما يحتاجه فعلاً من منهاج يتبعه، فليس من الصحيح أن يكون هناك - ومع هذا التفاوت بين الأفراد في الظروف والخصوصيات - برنامج واحد للجميع ويكون متحداً من جميع الجهات، بحيث لا تراعى فيه خصوصيات كل واحد، بل لا بدَّ من مراعاة الظروف الخاصة بكل فرد.

ولكن هذا لا يمنع من أن يكون هناك منهاج عام وذو حدود واسعة يمكن أن يشترك فيها جميع الأفراد أو غالبيتهم، مع ترك مساحة لمراعاة خصوصية كل شخص.

ونحن بكتابنا هذا أردنا تجسيد هذه الحقيقة، فهو عبارة عن استجابة لحاجة ضرورية إلى وضع منهاج يمكن أن يسير على وفقه مَنْ التفت إلى انجرافه - شعورياً أو لا شعورياً - مع رغباته وشهواته ومقتضيات معيشتة، فابتعد عن دينه وعن باريه؛ مريداً العودة إلى الله والإنابة إليه قبل فوات الأوان. وإذا ابتغيينا الدقة في التعبير: فكتابنا هذا هو محاولة لاستنطاق الشريعة

واستلهام منهاج عملي منها، وليس هو محاولة لإيجاد ذلك المنهاج عبر اجتهادات ذاتية ووفق قنوات شخصية.

ولهذا كنا حريصين على الاستشهاد بالنصوص الشرعية في مختلف الخطوات والمراحل التي تضمنها هذا المنهاج حتى لو كان المطلب وجدانياً ومقبولاً عند العقلاء.

وعلى أية حال، فما ذكرناه في طيّات الكتاب لا يعدو المحاولة في هذا المجال، والمساهمة في التذكير وتنبيه الناس على حقيقة ملموسة في وقتنا الحاضر، بل وفي كل وقت، وهي ما أشرنا إليه من انسياق الإنسان عادةً مع احتياجاته الاعتيادية وانقياده إلى ما فُطر عليه من الميل إلى إشباع شهواته والاستجابة لرغباته الطبيعية بشكل يؤدي في كثير من الأحيان إلى خروجه عما رُسم له طريق، وما يؤمّل له من رسالة ينبغي له أن يؤديها بحيث استحق بلحاظ ذلك أن يكون خليفة الله في الأرض؛ ولذلك فكل واحد منّا هو بحاجة إلى وقفة تأمل في ما عليه من واقع، وإدراك ضرورة أن يعود إلى كَنَف الشريعة لاجئاً إلى الله سبحانه وتعالى مستجيباً لأمره سبحانه في قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾^(١)، أي: ارجعوا إليه.

المصادر والمراجع

✽ القرآن الكريم.

✽ نهج البلاغة، كلام أمير المؤمنين عليه السلام، جمع الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي، ضبط وتحقيق: الدكتور صبحي الصالح، الطبعة الأولى.

✽ الصحيفة السجادية، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي الأصفهاني، الطبعة الأولى، مطبعة نمونة، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر في قم.

✽ مصباح الشريعة، منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، أسد الغابة في معرفة الصحابة، انتشارات إسماعيليان، طهران.

٢. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

٣. ابن خلكان البرمكي الإربلي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، مطبعة لبنان - دار الثقافة.

٤. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر، إقبال الأعمال، دار الكتب الإسلامية في طهران، ط ٢.

٥. ابن طاووس الحسيني، علي بن موسى بن جعفر، اللهوف في قتلى الطفوف، منشورات: أنوار الهدى، قم - إيران.
٦. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجليل في بيروت، ط ١، سنة الطبع ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٧. ابن قولويه القمي، جعفر بن محمد، كامل الزيارات، منشورات: دار المرتضوية للنشر، النجف الأشرف، سنة النشر ١٣٩٨هـ.
٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، منشورات: نشر أدب الحوزة، قم - إيران، ١٤٠٥هـ - ١٣٦٣ق.
٩. الإحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي، تحقيق: الحاج آقا مجتبی العراقي، تقديم: السيد شهاب الدين المرعشي النجفي، مطبعة سيد الشهداء، قم - إيران، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٠. الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، دار إحياء التراث العربي.
١١. الأمدي، محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم، منشورات: مكتب الإعلام الإسلامي، قم - إيران، ١٣٦٦هـ.ش.
١٢. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، طباعة: دار الكتب الإسلامية بقم، ط ٢، ١٣٧١هـ.
١٣. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٤. الحرّاني، علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في قم المشرفة، ط ٢، ١٤٠٤ هـ.
١٥. الحلي، أحمد بن فهد، عدّة الداعي ونجاح الساعي، تحقيق وتعليق: أحمد الموحيدي القمي، مكتبة وجداني بقم.
١٦. الخوئي، أبو القاسم، صراط النجاة بتعليقة الميرزا التبريزي، تجميع مواد الكتاب: موسى مفيد الدين عاصي العاملي، الناشر: دفتر نشر برگزيده، مطبعة سلمان الفارسي، ط ١، ١٤١٦ هـ.
١٧. د. عيسى عبدة، وأحمد إسماعيل يحيى، حقيقة الإنسان، دار المعارف، القاهرة، ط ٢.
١٨. الدينوري، ابن قتيبة، عيون الأخبار، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٩. الشيرازي، صدر الدين، الحكمة المتعالية، مكتبة المصطفى في قم.
٢٠. القاضي المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف للطباعة والنشر في القاهرة، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
٢١. الدمشقي الباعوني الشافعي، محمد بن أحمد بن ناصر، جواهر المطالب في فضائل علي بن أبي طالب، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط ١، ١٤١٦ هـ ق، قم - إيران.
٢٢. رانجيت سينج ماهي وروبرت ديليو ريزنر، تعزيز تقدير الذات، ط ١، ٢٠٠٥ م، مكتبة جرير.

١٧٦ الإجابة إلى الله

٢٣. الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، التنقيح الثاني، دار الحديث، تحقيق:

ونشر وطبع مؤسسة دار الحديث، قم - إيران.

٢٤. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد

كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

٢٥. ريتشارد تمبلر، قواعد الحياة، نشر وتوزيع مكتبة جرير، ط ١، ٢٠٠٨م.

٢٦. الشعيري، تاج الدين، جامع الأخبار، دار الرضي للنشر، قم، ١٤٠٥هـ.

٢٧. الشيرازي، ناصر مكارم، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة

جديدة منقحة مع إضافات.

٢٨. الصدر، محمد باقر، الفتاوى الواضحة، مطبعة الآداب في النجف

الأشرف.

٢٩. الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية،

مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

٣٠. الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري،

منشورات: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.

٣١. الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، منشورات المكتبة الحيدرية

ومطبعتها في النجف، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

٣٢. الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تصحيح وتعليق

وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، طبع ونشر: مؤسسة الأعلمي في

بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣٣. الصدوق، علي بن الحسين، فقه الرضا عليه السلام، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم المشرفة، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام في مشهد المقدسة، ط ١، ١٤٠٦ هـ.

٣٤. الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، تصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في حوزة قم المقدسة، ١٣٦١ هـ.ش.

٣٥. الصدوق، محمد بن علي، مَنْ لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، منشورات: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

٣٦. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تقديم: السيد محسن الأمين العاملي، منشورات: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات في بيروت، ط ١.

٣٧. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر مرتضوي، طهران.

٣٨. الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع في قم، ط ١.

٣٩. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، منشورات: مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٢٠٩ هـ.

٤٠. الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، منشورات: دار الكتب الإسلامية، طهران.

٤١. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت-لبنان، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٤٢. العاملي الجبعي، الشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، مكتب الإعلام الإسلامي بقم، ط ١.

٤٣. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث، قم، ط ١.

٤٤. العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ.

٤٥. العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدّسة، تنظيم: الشيخ بيت الله بيات ومؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، ١٤١٢هـ.

٤٦. العقاد، عباس محمود، الإنسان في القرآن، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٦م.

٤٧. العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق: الأستاذ عبد الرحيم مبارك، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات والبحوث الإسلامية، مشهد.

٤٨. العيَّاشي، محمد بن مسعود بن عياش، تفسير العيَّاشي، تصحيح وتحقيق وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاقي، طباعة ونشر السيد محمود الكتاجي وأولاده صاحب المكتبة الإسلامية العلمية.

٤٩. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، منشورات: مؤسسة دار الهجرة، ط ٢، ١٤٠٩ هـ، إيران.

٥٠. القاضي، عبد العزيز بن البراج، جواهر الفقه، تحقيق إبراهيم بهادري، إشراف الشيخ جعفر السبحاني، منشورات: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤١١ هـ.ق.

٥١. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥٢. القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي، منشورات: مكتبة الهدى، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري.

٥٣. الكجوري، محمد باقر، الخصائص الفاطمية، ترجمة: السيد علي جمال أشرف، منشورات: الشريف الرضي.

٥٤. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، منشورات: دار الكتب الإسلامية، مرتضى آخوندي، طهران، بازار سلطاني.

١٨٠ الإنابة إلى الله

٥٥. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار،

مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٥٦. المفيد، محمد بن محمد النعمان، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد،

تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع،

بيروت - لبنان، ط ٢.

٥٧. ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد، كتاب التواوين، تحقيق وتعليق:

عبد القادر الأرناؤوط، منشورات: مكتبة الشرق الجديد، بغداد.

٥٨. مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت،

ط ٣، ١٩٨١ م.

٥٩. النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، تحقيق وتعليق: السيد محمد

كلانتر، تقديم: الشيخ محمد رضا المظفر، منشورات: مطبعة النعمان،

النجف الأشرف.

٦٠. الواسطي الليثي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين

الحسيني البيرجندي، دار الحديث للطباعة، ط ١.

٦١. ورّام، حسين بن أبي فراس، تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة

ورّام)، مكتبة الفقيه في قم.

٦٢. وليام ليلي، مقدمة في علم الأخلاق، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور

علي عبد المعطي محمد، مؤسسة المعارف في الإسكندرية، ط ٢، ٢٠٠٠ م.

محتويات الكتاب

٧.....	مقدمة المؤسسة
٨.....	(مؤسسة الخلق العظيم) ودوافع تأسيسها
٩.....	رؤية المؤسسة
١١.....	أولاً: فطرية الميل الأخلاقي وإلهيته
٩.....	ثانياً: تكامل النظام الأخلاقي في الإسلام
١٠.....	ثالثاً: محورية الإنسان في الأخلاق
١١.....	أهداف المؤسسة
١٤.....	مشاريع المؤسسة
١٤.....	١- موسوعة المواعظ الحسنة
١٤.....	٢- موسوعة الأخلاق الإسلامية
١٥.....	٣- ترجمة النتاجات الأخلاقية
١٥.....	٤ - موسوعة التراث الأخلاقي
١٦.....	٥ - إعداد مناهج دراسية أخلاقية
١٦.....	٦- الأدب الأخلاقي
١٧.....	٧- تحقيق التراث الأخلاقي وتدوينه
١٧.....	٨ - مجلة الخلق العظيم

١٨٢ الإنابة إلى الله

- ٩- تأليف سلسلة الفضائل والردائل ١٨
- ١٠- إقامة المؤتمرات والملتقيات والندوات الأخلاقية ١٨
- ١١- المشاريع الإعلامية ١٨
- ١٢- إقامة دورات في الأخلاق الإسلامية ١٨
- ١٣- المكتبة الإلكترونية الأخلاقية ١٩
- هذا الكتاب ١٩
- المقدمة ٢١

الفصل الأول

الإنسان وحاجته إلى الإنابة إلى الله

- المبحث الأول: حقيقة الإنسان ٢٧
- المبحث الثاني: الإنسان وامتحان عالم الدنيا ٣٥
- المبحث الثالث: الإنابة إلى الله ٣٧

الفصل الثاني

خطوات في طريق الإنابة إلى الله

- الخطوة الأولى: اعتراف وإقرار ٤٤
- الخطوة الثانية: الاستغفار ومحاة للذنوب ٥٠
- الخطوة الثالثة: التوبة ٥٤
- (١) ما هي حقيقة التوبة ؟ ٥٥
- (٢) التوبة بداية الانطلاقة ٥٦

١٨٣	 محتويات الكتاب
٥٧	 (٣) التوبة ممحاة للذنوب
٥٩	 (٤) بالتوبة تُستر العيوب
٦٣	 (٥) إبدال السيئات بحسناتٍ
٦٥	 (٦) التوبة رفعةٌ ورقِيٌّ
٧١	 (٧) لزوم ردِّ حقوق الآخرين
٧٢	 الخطوة الرابعة: تعهّد والتزامٌ
٧٩	 الخطوة الخامسة: مراقبة النَّفس
٨٥	 الخطوة السادسة: محاسبة النَّفس

الفصل الثالث

عقبات في طريق الإنابة إلى الله

٨٩	 العقبة الأولى: الغفلة
٩٣	 سُبل علاج الغفلة
٩٨	 العقبة الثانية: حُبُّ الأنا
١٠٢	 سُبل علاج حُبِّ الأنا
١٠٩	 العقبة الثالثة: حُبُّ الدنيا
١١٤	 آثار سلبية لحُبِّ الدنيا
١١٧	 سُبل علاج حُبِّ الدنيا
١٢٤	 العقبة الرابعة: البيئة السيئة
١٢٦	 سُبل علاج العيش في البيئة السيئة

الفصل الرابع

البرنامج العملي

الإطار العام للبرنامج العملي	١٣٥
أولاً: وقت العبادة ومناجاة الله	١٤٠
ثانياً: وقت العمل وكسب المعيشة	١٤٩
ثالثاً: وقت معاشررة الإخوان والثقات	١٥٠
رابعاً: وقت الانشغال بالملذات المحللة	١٥٣
نصائح عامة	١٥٥
١. كُنْ وسطياً وواقعياً	١٥٦
٢. لا تُحمِّل نفسك أكثر من طاقتها	١٥٧
٣. بادِر بالعمل فالوقت يمضي	١٥٩
٤. لا تُشغل نفسك بما لا يعينك	١٦٠
٥. فعل الخير ولو قليلاً أفضل من تركه	١٦١
٦. حافظ على استمرارية عمل الخير ولو على حساب مقداره	١٦٢
٧. لا يكن قولك أفضل من عملك	١٦٣
٨. لا تُعجبْ بعملك فيقل طموحك	١٦٤
٩. أخلص النية فإن مدار قيمة العمل على النية	١٦٤
١٠. صلاح العمل بالعلم	١٦٦
الخاتمة	١٦٩
المصادر والمراجع	١٧٣
محتويات الكتاب	١٨١